تقريب القرآن إلى الأذهان الجزء التاسع

للمرجع الديني
السيد محمد الحسيني الشيرازي
(قدس سره)

من آية ٨٩ من سورة الأعراف
إلى آية ٤١ من سورة الأنفال

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد المصطفى وعترته الطاهرين

قَالَ الْمَلأ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٩) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلاَ أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٩٠) وَقَالَ الْمَلأ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ (٩١) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٢) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٣) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٤) وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٥) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ (٩٦)

[٨٩] {قال الملأ} جماعة الأشراف {الذين استكبروا} رفعوا أنفسهم فوق مقدارها وعتوا وطغوا {من قومه} أي من قوم شعيب {لنخرجنك} بكل تأكيد {يا شعيب و} لنخرجنّ {الذين آمنوا معك من قريتنا} أي بلدنا {أو لتعودن في ملّتنا} «الملّة» هي الطريقة، أي ارجعوا كفاراً كما كنتم، والعود في الملة إما باعتبار الغالب، فأدخل فيه شعيباً (عليه السلام) تغليباً، فإن المؤمنين به كانوا كفاراً ثم آمنوا، أو لزعمهم أن شعيباً (عليه السلام) كان منهم حيث كان أحدهم قبل ادّعاء النبوة، وإما بمعنى الصيرورة، فإن «عاد» يستعمل بمعنى «صار»، كما قال الشاعر:

تلك المكارم لا ثعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

{قال} شعيب (عليه السلام) لهم: أتعيدوننا في ملتكم وتدخلوننا إليها {أولو كنا كارهين} للدخول فيها؟ أي: أتجبروننا على ذلك؟ ولعل القصد: إنكم لا تقدرون على ذلك في حين كراهيتنا لذلك، فإن العقائد لا تزول بالإكراه والإجبار.

[٩٠] ثم قال شعيب: إنه من المستحيل أن نتخذ طريقتكم، إذ {قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم} بأن نجعل لله شريكاً، ونحلّل حرامه، ونحرّم حلاله وننسب كل ذلك إليه {بعد إذ نجانا الله منها} بأن أوضح الحق وأقام الحجة عليه {وما يكون لنا} أي لا يجوز لنا {أن نعود فيها إلاّ أن يشاء الله ربنا} وهذا من التعليق على المحال، لأن الله لا يشاء الكفر والعصيان، كما قال: (إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ)[١]، وقال: (حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ)[٢]، أو المراد مشيئة الله بسلب التوفيق منهم، وهذا ممكن بالنسبة إلى بعض المؤمنين الذين لا رسوخ لإيمانهم، كما ارتد بعضهم بعد

(١) سورة الزخرف: ٨٢.

(٢) سورة الأعراف: ٤١.

رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وحيث أن العود بالنسبة إلى كل واحد واحد صح ذلك {وسع ربنا كل شيء علماً} أي وسع علمه سبحانه كل شيء، فهو أعلم بالصلاح وأعلم بالواقع والحقيقة، فما كان من عبادتنا لتوحيده، بأمره ونهيه، هو الصحيح دون ما أنتم عليه من الشرك والعناد {على الله توكلنا} في أمورنا، فلا نخاف من تهديدكم بإخراجنا.

ثم دعا شعيب (عليه السلام) قائلاً: {ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق} ومعنى «الفتح» النجاة ووضوح الحق، إذ الواقع في المشكلة كأن الطريق مسدود أمامه، كما أن من يريد الهداية يرى الضلال حاجزاً، فيطلب الفتح لهذا الحاجز وإزالته ليرى الحق، وقيد «بالحق» توضيحي، لإفادة أن فتحه سبحانه بالحق، أو احترازي لأن الفتح يطلق على الفتح بالباطل ـ كما يفتح الكافر مدينة ما ـ والفتح بالحق {وأنت} يا إلهنا {خير الفاتحين} فإن سائر الفاتحين قد يظلم عمداً أو خطأً أو جهلاً، أما الله سبحانه فلا يحيد فتحه عن الحق، قيد شعرة.

[٩١] ثم بيّن سبحانه ما قالت جماعة شعيب بعضهم لبعض {وقال الملأ} أي جماعة الأشراف {الذين كفروا من قومه} أي من قوم شعيب، بعضهم لبعض: {لئن اتبعتم شعيباً} في دينه وطريقته {إنكم إذاً لخاسرون} خسرتم منافعكم وطريقة آبائكم.

[٩٢] {فأخذتهم الرجفة} أي الزلزلة، أو الصحية، الموجبة للرجف والاضطراب {فأصبحوا في دارهم} أي محلهم وبلدهم {جاثمين} أي ميتين مُلقَين لا حراك فيهم.

في المجمع: قيل: أرسل الله عليهم رمدة «أي هلاكاً جعلهم كالرماد» وحراً شديداً فأخذ بأنفاسهم، فدخلوا أجواف البيوت، فدخل عليهم البيوت، فلم ينفعهم ظل ولا ماء وأنضجهم الحرّ، فبعث الله تعالى سحابة فيها ريح طيبة فوجدوا برد الريح وطيبها وظل السحابة فتنادوا: «عليكم بها» فخرجوا إلى البرية فلما اجتمعوا تحتها ألهبها الله عليهم ناراً ورجفت بهم الأرض فاحترقوا كما يحترق الجراد المقلي وصاروا رماداً وهو عذاب يوم الظلّة[٣].

ثم روي عن أبي عبدالله (عليه السلام): «أنه بعث الله عليهم صيحة واحدة فماتوا»[٤].

[٩٣] {الذين كذبوا شعيباً} ولم يؤمنوا به وبرسالته {كأن لم يغنوا فيها} «غنى بالمكان» يعني: «أقام فيه» أي: كأن المكذبين لم يقيموا في دارهم أصلاً، حيث ذهبت أخبارهم وآثارهم {الذين كذبوا شعيباً} عاد اللفظ تأكيداً {كانوا هم الخاسرين} فقد خسروا دينهم ودنياهم وآخرتهم، وهذا في قبال قولهم: «لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ».

[٩٤] {فتولّى عنهم} شعيب، أي أعرض عنهم، إما قبل الهلاك ـ وتأخير هذه الجملة لما تقدم في قصة قوم صالح ـ وإما حين الهلاك إذ أخذهم العذاب {وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي} وجمع

---

(٣) مجمع البيان: ج٤، ص٣٠٩.

(٤) بحار الأنوار: ج١٢، ص٣٨٣.

«رسالات» باعتبار كل رسالة من مختلف الشؤون {ونصحت لكم} بأن تتبعوني حتى تكونوا في أمن وسلامة {فكيف آسى} أي أحزن {على قوم كافرين} بعد أن قمت بواجب النصح والإرشاد. والمراد بالاستفهام «كيف» النفي، أي: لا أحزن، فإنهم استحقوا العقاب بإعراضهم واستكبارهم وتمرّدهم.

[٩٥] ثم ذكر سبحانه أنه هكذا جرت عادة الناس بالنسبة إلى الأنبياء، وهكذا جرت سنة الله بالنسبة إلى المكذبين، تسليةً للنبي (صلى الله عليه وآله)، وإيقاظاً لمن أراد القيام بالأمر والنهي في سبيل الله تعالى {وما أرسلنا في قرية} المراد بها المدينة {من نبي} لإرشادهم، فلم يؤمنوا به {إلاّ أخذنا أهلها} أي أهل تلك القرية {بالبأساء والضراء} البأساء: الشدة، والضراء: سائر أنواع الضرر {لعلهم يضرّعون} أي يتضرعون، بأن يتنبهوا ويتوبوا عن شركهم وكفرهم ومعاصيهم.

[٩٦] {ثم} بعد أخذهم بالبأساء والضراء {بدلنا مكان السيئة الحسنة} بأن رفعنا عنهم الشدة وجعلنا الرفاه والرخاء مكانها لعلهم يشكرون، كما قال سبحانه: (فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)(٥)، فإن الله سبحانه يوقظ العصاة أولاً بالشدة، فإن لم تنفع يوقظهم بالرفاه، فإن لم ينفع عذّبهم، حيث لم يفدهم لا الخوف ولا الإحسان {حتى عفوا} «العفو» هو: الإغضاء عن الذنب، أي فعلوا الذنوب غاضّين عنها، تاركين أنفسهم وشهواتها.

{و} إذا قيل لهم: إن الشدة والرخاء للابتلاء والإيقاظ، لم يصدقوا، بل {قالوا}: هذه عادة الدنيا دائماً فـ {قد مس آباءنا الضراء والسراء} ما يضر من الشدائد، وما يسر من الرفاه، وليسا للابتلاء والإيقاظ {فـ}انسدت جميع أبواب الهداية في وجوههم، ولم ينفعهم إرشاد الأنبياء، ولا الضراء ولا السراء {أخذناهم بغتةً} أي فجأةً بدون إمهال {وهم لا يشعرون} بالعذاب إلاّ حين يرونه، وربما كان هناك احتمال إقلاع، وهنا يأتي العذاب تدريجياً، كما حصل لقوم يونس (عليه السلام)، أو إبلاغاً للحجة إلى أقصاها، كما صنع بقوم صالح (عليه السلام).

ثم إن المؤمن والكافر كلاهما يُبتليان بالضراء والسراء، لكن هناك فرق؛ فضراء المؤمن مع صبر وارتياح، وضراء الكافر مع جزع وكمد، وسراء المؤمن مع بركة وأمن واطمئنان، وسراء الكافر مع محق وقلق واضطراب.

---

(٥) سورة الأنعام: ٤٥.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٧) أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٨) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٩) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (١٠٠) أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ (١٠١) تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠٢) وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٣) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٤) وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٥)

[٩٧] {ولو أن أهل القرى آمنوا} بالله تعالى وبأنبيائه {واتقوا} معاصيه وعملوا الصالحات {لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض} «البركات» الخيرات النامية، وفتح الخير من السماء بكثرة الأمطار، وطيب الهواء، وفتحه من الأرض بإخراج النبات والثمار، وتفجّر العيون، إلى غيرهما من الخيرات المادية والمعنوية كاستجابة الدعاء ونحوها، وهذا إلى جنب كونه معنوياً بلطفه سبحانه، كذلك يكون بالأسباب الظاهرة، فإن الإيمان والتقوى يوجبان سيادة مناهج الله تعالى وهي توجب الأخوة والتعاون مما يسببان ازدهار الحياة وتعميم الرفاه والأمن، كما أن الكفر والعصيان سببان لعكس ذلك {ولكن كذبوا} الرسل ولم يؤمنوا {فأخذناهم بما كانوا يكسبون} أي بسبب كسبهم المعاصي والآثام.

[٩٨] ثم ذكر سبحانه أن أهل المعاصي لا بد لهم أن يترقبوا العقاب والنكال {أفأمن} أي هل يأمن {أهل القرى} المكذبون للرسل العاصون لله سبحانه {أن يأتيهم بأسنا} أي عذابنا {بياتاً} أي ليلاً {وهم نائمون} في أمن وراحة واطمئنان؟ والمعنى: أنهم يجب أن لا يأمنوا ذلك.

[٩٩] {أوأمن أهل القرى} الهمزة للاستفهام، والواو للعطف، أي وهل يأمن أهل البلاد {أن يأتيهم بأسنا} نكالنا وعقابنا {ضحىً} نهاراً عند ارتفاع الشمس {وهم يلعبون} في أمن واطمئنان، أنهم إن عصوا فلن يكونوا آمنين في أحسن أوقات أمنهم ليلاً ولا نهاراً.

[١٠٠] {أفأمنوا مكر الله} المكر: العلاج الخفي، وإن غلب استعماله عرفاً في معالجة الأشياء بالباطل، أي يجب أن لا يأمن أحد من مكر الله، وتسبيبه الأسباب للنكال به {فلا يأمن مكر الله إلاّ القوم الخاسرون} الذين خسروا أنفسهم، ولا ينكرون من أمرهم، وإلا فالمؤمنين يخافون سوء العاقبة الموجب للنكال والعقاب، والمعصومون خارجون عن العموم لأن مصب الكلام حول العصاة ـ فإنه عبارة

أخرى عن وجوب حذر العصاة ـ أو داخلون باعتبار احتمال صدور ترك الأولى منهم، الموجب لعدم بلوغ بعض الدرجات الرفيعة، كما قال سبحانه: (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً)(٦).

[١٠١] {أوَلم يهد} أي: ألم يُنبّه ويُرشد {للذين يرثون الأرض من بعد أهلها} أي الذين صاروا خلفاء لآبائهم وأجدادهم، من بعد ما أفنينا أولئك، وأبحنا الأرض لهؤلاء، أي أليس يعرف الناس مما رأوه من عذاب الأمم السابقة ـ حينما عصوا ـ {أن لو نشاء أصبناهم} وأخذناهم {بذنوبهم} كما أهلكنا الأمم السابقة {ونطبع على قلوبهم} بأن نُعلِمها بعلامة الكفر، أو نُغفلها حتى لا تعقل شيئاً، وذلك بسبب اقترافهم الجرائم والآثام ـ كما سبق ـ {فهم لا يسمعون} الوعظ ولا يقبلونه.

[١٠٢] {تلك القرى} التي هلكت واضمحلت {نقص عليك} يا رسول الله {من أنبائها} أي أخبارها لتنظر فيها بنظر الاعتبار، وتخبر بها المسلمين وغير المسلمين حتى يعتبروا {ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات} أي الأدلة الواضحة الدالة على المرسل والرسول {ف}أهلكناهم لأنهم تمادوا في غيهم ولم يكن احتمال إقلاعهم عن كفرهم وعصيانهم إذ {ما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل} إنهم كانوا كذلك حسب علمنا بكامن قلوبهم {كذلك} أي كما طبع على قلوب هؤلاء، بمعنى أنها لم تكن قابلة للهداية بسوء صنيعها، كمن صارت المعصية ملكة له فلا يقدر عادةً على تركها كذلك {يطبع الله على قلوب الكافرين} وقد مرّ مراراً معنى «الطبع» وأنه بسوء اختيار الشخص، لا أنه ظلم من الله ـ تعالى عن ذلك ـ بالنسبة إلى الكافر.

[١٠٣] {وما وجدنا لأكثرهم} أي أكثر الذين أُهلكوا {من عهد} أي كانوا ينقضون العهود والمواثيق، يقال: «لا عهد لفلان»، أي لا يفي بعهده، والمراد بـ«العهد»، إما ما أودع في فطرة كل أحد من الإيمان، وإما ما كان مأخوذا من الناس على لسان الأنبياء، وتصح نسبة عدم العهد إلى الأبناء، بملاحظة التعهد مع الآباء، ولذا من عاهد قبيلة أن لا يحاربها خمسين سنة، كان الأبناء ملزمين بما التزم به آباؤهم {وإن وجدنا} أي قد وجدنا {أكثرهم لفاسقين} خارجين من الوفاء بالعهد، فإن الفسق بمعنى الخروج عن الطاعة.

[١٠٤] {ثم بعثنا من بعدهم} أي بعد الرسل الذين تقدمت أسماؤهم، أو بعد هلاك الأمم السالفة {موسى} (عليه السلام) {بآياتنا} أي مع دلائلنا وحججنا {إلى فرعون وملأه} أي قومه، أو الأشراف منهم، وإنما خُصّوا لأنه (عليه السلام) قصدهم أولاً وبالذات {فظلموا} أي ظلم فرعون وملأه أنفسهم {بها} أي بسبب تلك الآيات، فإن نزولها صار سببا لظلم أنفسهم، ولولا أنها نزلت لم يظلموا، لأنه لم تكن حينئذ شريعة أصلاً، وهذا مجاز في النسبة كقوله سبحانه: (وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً)(٧)،

---

(٦) سورة طه: ١١٦.

(٧) سورة الإسراء: ٨٣.

{فانظر كيف كان عاقبة المفسدين} أي انظر يا رسول الله، أو كل من يأتي منه النظر، والمراد بـ«النظر» التدبر والتفكر، فيما آل إليه أمر المفسدين، من الهلاك والغرق.

[١٠٥] {وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين} أي إني رسول إليك، من الله تعالى، وقد كان فرعون يقول أنه الإله، كما قال سبحانه: (فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأعْلَى)[٨].

(٨) سورة النازعات: ٢٤ و٢٥.

حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لاَ أَقُولَ عَلَى اللهِ إلاَ الحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٦) قَالَ إِنْ كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٧) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (١٠٨) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٩) قَالَ الْمَلأَ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١١٠) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١١) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١٢) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٣) وَجَاء السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٤) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٥) قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٦) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٧) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٨) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٩) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١٢٠) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢١)

[١٠٦] {حقيق على أن لا أقول على الله إلاّ الحق} أي واجب عليّ أن أقول الحق، ولا أنسب إلى الله إلاّ الصدق، فإن الجدير بالنبي أن يقول ما قاله سبحانه، لا أن ينسب إليه تعالى الباطل والكذب {قد جئتكم ببينة من ربكم} أي بحجة دالة على صدق كلامي، والمراد بها الجنس لا حجة واحدة {فأرسل} يا فرعون {معي بني إسرائيل} فإن فرعون كان قد سخّر بني إسرائيل للأعمال كالبناء ونحوه. والمراد بإرسالهم: التخلية بين بني إسرائيل وبين موسى (عليه السلام) ليوجّههم حسب الشريعة. وفي بعض التفاسير أنه (عليه السلام) أرادهم ليذهب بهم إلى الأرض المقدسة موطن آبائهم وأجدادهم.

[١٠٧] {قال} فرعون: {إن كنت} يا موسى {جئت بآية} أي حجة تدل على صدق نبوتك {فأت بها إن كنت من الصادقين} في أنك رسول رب العالمين.

[١٠٨] {فألقى} موسى (عليه السلام) {عصاه} التي كانت بيده، وكانت من الجنة {فإذا هي} تنقلب إلى {ثعبان مبين} أي حية كبيرة عظيمة فتحت فاها لتلتقم قصر فرعون الذي كان طوله ثمانين ذراعاً. وهنا خاف فرعون والحاشية، وهربوا، وأحدث فرعون من الخوف، والتمس موسى أن يردّها، فردّها وإذا بها ترجع عصاً كالسابق.

[١٠٩] {ونزع} موسى (عليه السلام) {يده} أي جعلها تحت إبطه، ثم أخرجها {فإذا هي بيضاء للناظرين} أي صارت اليد أكثر ضياءً من الشمس، ثم أعادها إلى إبطه وأخرجها فإذا بها كحالتها السابقة.

[١١٠] ولما رأوا هاتين المعجزتين العظيمتين تحيروا، وهنا تدخلت الحاشية في الأمر ليخفّفوا من روع فرعون {قال الملأ} أي جماعة الأشراف {من قوم فرعون إنّ هذا} أي موسى (عليه السلام) {لساحر عليم} بالسحر، وأنه صنع ما صنع سحراً لا معجزةً.

[١١١] {يريد} أي موسى (عليه السلام) {أن يخرجكم من أرضكم} باستمالة قلوب بني إسرائيل وسائر الناس إلى نفسه حتى يغلب عليكم. ومن الواضح أن شخصاً إذا غلب يهرب أعضاء الحكومة السابقة خوفاً منه {فماذا تأمرون} أن نصنع لاتقاء خطر موسى (عليه السلام) ؟

[١١٢] {قالوا} أي قال الملأ في جواب فرعون الذي سأل «ماذا تأمرون»: {أرجه} أمر من «أرجأ» بمعنى «أخّر»، أي أخّره واضرب معه موعداً، ولا تعجل في الحكم له أو عليه {وأخاه} أي وأخّر أخاه هارون معه {وأرسل في المدائن} التي حولك، جمع «مدينة» أي ابعث إلى البلدان الأخرى {حاشرين} أي أناساً جامعين للسحرة ليأتوا ويقابلوه بمثل سحره.

[١١٣] {يأتوك} أولئك المبعوثون {بكل ساحر عليم} فاستحسن فرعون رأيهم وأرسل في طلب السحرة.

[١١٤] {وجاء السحرة} وفي عددهم خلاف: من سبعين، إلى ثمانين ألف {فرعون} أي جاءوا إليه {قالوا إن لنا لأجراً} أي عوضاً على عملنا {إن كنّا نحن الغالبين} على موسى.

[١١٥] {قال} فرعون: {نعم} لكم الأجر إن غلبتموه {وإنكم لمن المقربين} إليّ، فأكرمكم وأجعلكم في عداد المقربين إلي.

[١١٦] {قالوا} أي قال السحرة: {يا موسى إما أن تلقي} عصاك أنت أولاً {وإما أن نكون نحن الملقين} لما معنا من السحر؟

[١١٧] {قال} لهم موسى (عليه السلام): {ألقوا} ما معكم أولاً {فلما ألقوا} حبالهم وعصيّهم التي كانت آلة سحرهم {سحروا أعين الناس} فقد احتالوا في تحريك العصي والحبال بما جعلوا فيها من الزئبق حتى تتحرك بحرارة الشمس، وغير ذلك من أنواع التمويه، وخُيّل إلى الناس أنها تتحرك، وقد ظن الناس أنها حيات تتحرك، وما شعروا أنها حبال تُحرّكها حرارة الشمس بما فيها من الزئبق {واسترهبوهم} أي أرهبوهم، فإن الناس خافوا من حيّاتهم {وجاءوا بسحر عظيم} فإن الحبال الكثيرة المختلفة الألوان والكيفية إذا صارت كلها حيات ـ في أعين الناس ـ تركب بعضها على بعض يكون عظيماً لدى الناظر.

[١١٨] {وأوحينا إلى موسى} (عليه السلام) حين ذاك {أن ألق عصاك} التي هي معك، فألقاها فصارت ثعباناً مدهشاً {فإذا هي تلقف} أي تلقم وتأكل {ما يأفكون} أي إفكهم، والمراد به حيّاتهم وعصيّهم، فإن العصا أخذت تأكل الحبال ثم توجهت إلى الناس، فأخذوا في الهرب، وقتل تحت

الأيدي والأرجل جمع كثير، ثم أخذها موسى (عليه السلام) فإذا بها عصا، وهناك قال السحرة: لو كان هذا سحراً لم تأكل حبالنا، فلا بد وأن يكون إعجازاً من رب السماء.

[١١٩] {فوقع} أي ظهر {الحق} وهو أمر موسى (عليه السلام) ونبوته {وبطل ما كانوا يعملون} من التمويهات، أي ظهر بطلانها.

[١٢٠] {فغلبوا} أي غلب موسى (عليه السلام) فرعون وملأه، وبُهت أولئك {هنالك} أي من ذلك المكان {وانقلبوا} أي انصرف فرعون وملأه {صاغرين} أذلاّء مقهورين.

[١٢١] {وألقي السحرة ساجدين} فإن السحرة لما شاهدوا تلك الآيات، وعلموا أن موسى (عليه السلام) نبي من عند الله تعالى، لم يتمالكوا أنفسهم إلاّ وسجدوا إذعاناً لله سبحانه، والتعبير بـ«ألقي» مبني للمجهول، لأجل إفادة معنى عدم تمالك النفس، وأن ما رأوا من الآيات هي التي سببت أن يسجدوا.

قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٢) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٣) قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ
أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٤)
لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٥) قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ
(١٢٦) وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ
(١٢٧) وَقَالَ الْمَلأ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ
سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٨) قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ
وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٩) قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ
تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ
تَعْمَلُونَ (١٣٠) وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣١)

[١٢٢] {قالوا} أي قال السحرة: {آمنا بربّ العالمين} صدّقناه واعترفنا بوجوده، وكفرنا بألوهية فرعون.

[١٢٣] {رب موسى وهارون} وإنما خصّوهما بالذكر، بعد قولهم «رب العالمين» لأنهما دعيا إلى الإيمان بالله.

[١٢٤] {قال فرعون} حين رأى إيمان السحرة: {آمنتم به} أي بموسى (عليه السلام) والاستفهام للتوبيخ والإنكار {قبل أن آذن لكم} أي قبل أن تحصلوا على إذني، فإنه كان يرى نفسه المستحق لأن يأذن بالإيمان، وأن الإيمان بدون إذنه موجب للعقوبة {إن هذا} أي هذا الإيمان بهذه الكيفية {لمكر مكرتموه في المدينة} فإنه أراد أن يُلبس على الناس أن إيمان السحرة ليس على علم واعتقاد، وإنما عن تواطؤ من موسى والسحرة {لتخرجوا منها أهلها} أي صنعتم هذا المكر لأن تسودوا أنتم في البلاد، وتخرجوا من المدينة أهلها، والمراد بهم فرعون وملأه، فإنه إذا جاءت سلطة جديدة، تجبر أهل السلطة القديمة بالفرار وقايةً لأنفسهم من السجن والقتل {فسوف تعلمون} أيها السحرة عاقبة أمركم وجزاء عملكم.

[١٢٥] {لأقطعن} بكل تأكيد {أيديكم وأرجلكم} أيها السحرة {من خلاف} أي من كل شق طرفاً، كاليد اليمنى والرجل اليسرى، أو بالعكس. وكانوا يعملون ذلك لبقاء التوازن في الجملة للجسد، إذ لو كان القطع من طرف واحد، لم يكن لذلك الطرف رجل يمشي بها، ولا يد يتكئ بها على العصا {ثم} بعد القطع {لأصلبنكم} و«الصلب» هو الشد على الخشبة حتى يموت، وقد كان يطول بقاء المصلوب يوماً وأكثر {أجمعين} فلا أدع منكم أحداً.

[١٢٦] {قالوا} أي قال السحرة: {إنا إلى ربنا منقلبون} «الانقلاب» هو الرجوع، والمعنى: إنك إن صلبتنا فإنا إلى جزاء الله وثوابه نرجع، فلا يضرنا شيء. وغرضهم بيان صبرهم على ما ينزل بهم من الشدة، وأنهم مصممون على استمرارهم في الإيمان.

[١٢٧] {وما تنقم} «النقمة» الإنكار، أي: ما تكره {منا} وما تطعن فينا {إلاّ أن آمنا بآيات ربنا} أي دلائله وحججه {لما جاءتنا} فليس لنا ذنب سوى ذلك {ربنا أفرغ علينا صبراً} أي اصبب علينا الصبر عندما يُفعل بنا من القطع والصلب {وتوفنا مسلمين} أي وفّقنا للثبات على الإسلام إلى وقت الوفاة حتى نموت على الإيمان والإسلام. وفي أن فرعون صلب هؤلاء أم لا، خلاف بين المفسرين.

[١٢٨] {وقال الملأ} أي جماعة الأشراف {من قوم فرعون} بعد أن رأوا غلبة موسى (عليه السلام) وإيمان جمعٌ به {أتذر} أي هل تبقي يا فرعون {موسى وقومه} وهم بنو إسرائيل {ليفسدوا في الأرض} بإظهار التوحيد، وأنك لست بإله {ويذرك} أي يتركك موسى، فلا يعتني بك {و} يذر {آلهتك} جمع «إله»، فقد كان يدّعي الربوبية، وجعل لهم آلهة أيضاً، فكانوا يعبدون البقر والأصنام. وقد كان الاستفهام منهم تحريضاً لفرعون، حتى يقضي على موسى (عليه السلام) {قال} فرعون في جوابهم: {سنقتّل أبناءهم} أي سوف نكثر في أبناء قوم موسى القتل حتى لا يبقى منهم أحد يصلح للقتال والإفساد {ونستحيي نساءهم} أي نستبقيهن أحياء للخدمة والاستمتاع إذلالاً لهم، وإماتة لكلمتهم {وإنا فوقهم قاهرون} بيدنا القوة والجند والسلاح والملك فلا يتمكنون من مقاومتنا.

[١٢٩] قد كان فرعون يفعل ذلك ببني إسرائيل، لما علم أن زوال ملكه بيد أحدهم، ولما ظهر موسى (عليه السلام) كفّ عن ذلك خوفاً، وبعدما حثه قومه على الانتقام، عزم على العودة إلى ما كان يفعله سابقاً، ولما علم بذلك بنو إسرائيل شكوا إلى موسى (عليه السلام) فـ{قال موسى} (عليه السلام) {لقومه استعينوا بالله} في دفع بلاء فرعون عن أنفسكم {واصبروا} على أذى فرعون أياماً قليلة، فلا ترجعوا عن دينكم، ولا تظهروا الجزع {إن الأرض لله} تعالى {يورثها من يشاء من عباده} أي ينقلها بإماتة السابقين أو إقصائهم، ويجعلها في أيدي الآخرين، كما أن الإرث كذلك في الجملة {والعاقبة} الحسنة {للمتقين} الذين يتقون الله تعالى، فإنهم يجلبون بذلك خير الدنيا وسعادة الآخرة، مع رضا الله سبحانه عنهم.

[١٣٠] {قالوا} أي قال بنو إسرائيل، لما سمعوا جواب موسى بالصبر، وأنه لا يريد دفع فرعون عاجلاً: {أوذينا} أي عُذّبنا من قبل فرعون {من قبل أن تأتينا} وتُبعث فينا بالرسالة {ومن بعد ما جئتنا} وبُعثت إلينا رسولاً، فلم ننتفع بك في دفع الأذى {قال} موسى (عليه السلام) واعداً إياهم بالنجاة: {عسى ربكم} أي لعل الله سبحانه {أن يهلك عدوكم} فرعون وينقذكم منه {ويستخلفكم في الأرض} أي يجعلكم خلفاءه والقائمين مقامه في البلاد {فينظر كيف تعملون} بعدما ملكتم

الأرض، هل تفسدون كما أفسد فرعون أم تصلحون، فإن الله سبحانه يجازي البشر بعملهم لا بعلمه فيهم.

[١٣١] ثم بيّن سبحانه ما فعله بآل فرعون من النكال والعقاب جزاءً بما كانوا يقترفونه من المعاصي والآثام {ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين} «السنين» الأعوام المقحطة، يقال: «أخذتهم السنة» إذا كانت سنة مقحطة مجدبة، أي عاقبناها بالجدب والقحط {ونقص من الثمرات} فإن أشجارها كانت تحمل أثماراً قليلة، وهذا غير جدب أراضيهم {لعلهم يذكرون} أي لكي يذكروا عذاب الله فيرجعوا إلى الإيمان.

فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلاَ إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (١٣٢) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٣) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (١٣٤) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٥) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (١٣٦) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٧) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٨)

[١٣٢] {فإذا جاءتهم الحسنة} أي أصابهم الخير كالخصب والسعة والصحة وما أشبه {قالوا لنا هذه} أي إنا نستحق ذلك، وهذا من حسن حظنا، وعلوّ طالعنا، فلم يكونوا يشكرون الله سبحانه على ما أنعم عليهم {وإن تصيبهم سيئة} كالجوع والقحط والمرضِ ونحوها {يطيّروا} أصله «يتطير» فأدغمت التاء في الطاء {بموسى ومن معه} من المؤمنين، فكانوا يقولون: هذا من شؤم موسى وسوء طالعه، والأصل في التطير ما كان العرب تزعمه من أن الطير إذا جاء من طرف شمال الإنسان كان شراً وإذا جاء من طرف يمينه كان خيراً، ثم غلب التطيّر في القسم الأول، فإذا قيل: «تطيّر» أريد أنه «تشاءم».

فكان آل فرعون يرون البلايا من موسى (عليه السلام) ولم يكونوا يعلمون أنها من سوء أعمالهم {ألا} أي تنبيه أيها المخاطب {إنما طائرهم} والشؤم الذي كان يلحق بهم لم يكن من عند موسى ولأجله بل من {عند الله} فإنه كان يضربهم بالبلاء عقوبة لأعمالهم {ولكن أكثرهم لا يعلمون} ذلك بل كانوا يزعمون الشؤم من موسى (عليه السلام).

[١٣٣] {وقالوا} أي قال فرعون وملأه لموسى (عليه السلام): {مهما تأتنا به من آية لتسحرنا} أي: أي شيء من المعجزات لتموّه علينا {بها} بسببها، تريد بذلك أن نؤمن بما تدعو إليه {فما نحن لك بمؤمنين} ولانصدّقك فيما جئت به من الألوهية والرسالة والوعد والوعيد.

[١٣٤] {فأرسلنا عليهم الطوفان} هو الماء الغالب على أبنيتهم وأشجارهم حتّى خرّبها {والجراد} حتّى أكل أشجارهم وزرعهم {والقمل} هو السوس الذي يخرج من الحنطة ونحوها {والضفادع} جمع «ضفدع» حتى كان يثب في أوانيهم وقدورهم ويكثر في بيوتهم ومحلاتهم حتّى عجزوا

عنها {والدم} فقد انقلب ماء النيل دماً فكانون لا يتمكنون من شرب ولا يهنؤون بأكل وطعام {آيات مفصلات} أي معجزات فُصّلت بعضها عن بعض، ظاهرات واضحات {فاستكبروا} أي تكبروا عن قبول الحق بعد كل ذلك {وكانوا قوماً مجرمين} عاصين ذوي كفر وإجرام.

روي أن السحرة لما سجدوا وآمن بموسى جمعٌ من آل فرعون قال هامان لفرعون ـ وكان وزيره ـ: إن الناس قد آمنوا بموسى فانظر من دخل في دينه فاحبسه، فحبس كل من آمن به من بني إسرائيل، فجاء إليه موسى، فقال له: خلِّ عن بني إسرائيل، فلم يفعل، فأنزل الله عليهم في تلك السنة الطوفان، فخرّب دورهم ومساكنهم حتى خرجوا إلى البرية وضربوا الخيام، فقال فرعون لموسى: ادع ربك حتى يكف عنا الطوفان فأخلّي عن بني إسرائيل وأصحابك، فدعا موسى ربه فكفّ عنهم الطوفان وهمّ فرعون أن يخلي عن بني إسرائيل، فقال له هامان: إن خليت عن بني إسرائيل غلبك موسى وأزال ملكك، فقبل منه ولم يخلّ عن بني إسرائيل، فأنزل عليهم في السنة الثانية الجراد فجردت كل شيء كان لهم من النبت والشجر حتى كانت تجرد شعورهم ولحاهم، فجزع فرعون من ذلك جزعاً شديداً، وقال: يا موسى ادع ربك أن يكف عنا الجراد حتى أخلي عن بني إسرائيل وأصحابك، فدعا موسى ربه فكفّ عنهم الجراد.

فلم يدعه هامان أن يخلي عن بني إسرائيل فأنزل الله عليهم القمّل فذهب زرعهم وأصابتهم المجاعة فقال فرعون لموسى: إن دفعت عنا القمل كففت عن بني إسرائيل، فدعا موسى ربه حتى ذهب القمل، فلم يخلي عن بني إسرائيل، فأرسل الله عليهم بعد ذلك الضفادع فكانت تكون في طعامهم وشرابهم، فجزعوا من ذلك جزعاً شديداً، فجاءوا إلى موسى فقالوا: ادع الله يذهب عنا الضفادع فإنا نؤمن بك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا موسى ربه فرفع الله عنهم ذلك، فلما أبوا أن يخلوا عن بني إسرائيل حوّل الله ماء النيل دماً فكان القبطي يراه دماً والإسرائيلي يراه ماءً فإذا شربه الإسرائيلي كان ماءً وإذا شربه القبطي كان دماً، فجزعوا من ذلك جزعاً شديداً فقالوا لموسى: لئن رُفع عنا الدم لنرسلن معك بني إسرائيل، فلما رفع الله عنهم الدم غدروا ولم يخلوا عن بني إسرائيل.

[١٣٥] {ولما وقع عليهم الرجز} «الرجز» العذاب، فقد أصابهم ثلج أحمر ولم يروه قبل ذلك فماتوا فيه وجزعوا وأصابهم ما لم يعهدوا من قبل {قالوا} أي فرعون وملأه: {يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك} أي بما تقدم إليك أن تدعوه به، فإنه يجيبك كما أجابك سابقاً {لئن كشفت عنا} هذا {الرجز لنؤمنن لك} بما جئت به من التوحيد والنبوة {ولنرسلن معك بني إسرائيل} فنطلق سراحهم من السجون ومن تسخيرهم بالأعمال الشاقة.

[١٣٦] {فلما كشفنا عنهم الرجز} بدعاء موسى (عليه السلام)، ومعنى «كشف الرجز» رفع العذاب {إلى أجل هم بالغوه} أي: إن رفعنا العذاب كان لأجل أن يبلغوا المدّة المحدودة المقدرة لهم، إذ لم يقدّر موتهم في ذلك الوقت الذي نزل بهم الرجز فيه {إذا هم ينكثون} أي يخالفون وينقضون عهدهم فلا يؤمنون ولا يطلقون بني إسرائيل.

[١٣٧] {فانتقمنا منهم} أي عذّبناهم جزاءً بما فعلوا من الكفر والمعاصي {فأغرقناهم في اليم} أي في البحر {بأنهم} أي بسبب أنهم {كذبوا بآياتنا وكانوا عنها} أي عن الآيات {غافلين} بمعنى أنهم كانوا يعملون عمل الغافل عن الآيات، إذ الملتفت العاقل لا يخالف ولا يكذب، أو المراد غافلين عن عواقب الآيات، كما يقال: «فلان غافل عن أمر السلطة» أي عن عواقبه السيئة فيما إذا خالف.

وفي بعض الروايات: أنه بعد نزول الثلج خلّي عن بني إسرائيل فاجتمعوا إلى موسى في مصر واجتمع إليه من كان هرب من مصر وبلغ فرعون ذلك، فقال هامان: قد نهيتك أن تخلّي عن بني إسرائيل فقد استجمعوا إليه، فجزع فرعون، وفرّ موسى إلى الخارج واتبعهم فرعون، حتى وصلوا إلى البحر، فدخل موسى ومن معه البحر بعدما انشق لهم طُرُقاً، ولما بلغوا منتصف البحر ـ وهو البحر الأحمر ـ دخل فرعون وجنوده البحر ولما بلغ موسى آخر البحر وخرجوا، كان فرعون قد بلغ منتصفه ـ وعرضه أربع فراسخ تقريباً ـ وهناك أطبق الماء على أصحاب فرعون، وأغرقوا أجمعين.

[١٣٨] {وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون} يعني: أعطينا بني إسرائيل الذين كانوا مستضعفين، فإن القبط كانوا يستضعفونهم، فأورثهم الله {مشارق الأرض ومغاربها} أي مشارق الأرض التي كانوا فيها، ومغاربها يعني أرض الشام، فإن بني إسرائيل ملكوها بعد الفراعنة والعمالقة {التي باركنا فيها} بإخراج الزرع والثمار وسائر صنوف النبات والأشجار {وتمت} وثبتت {كلمة ربك الحسنى} صفة «كلمة» أي الكلمة الحسنة التي وعدها الله {على بني إسرائيل} فإنه أنجز وعده بإهلاك أعدائهم واستخلافهم في الأرض وكان تمام الكلمة الحسنى {بـ} سبب {ما صبروا} على أذى فرعون متمسكين بدينهم، وقيل المراد بـ«الكلمة الحسنى» ما بيّنه سبحانه في محل آخر بقوله: (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ـ إلى قوله ـ يَحْذَرُونَ)[٩].

{ودمرنا} أي نسفنا وأهلكنا {ما كان يصنع فرعون} من الأبنية والقصور {و} ما كان يصنعه {قومه} من المنازل والمزارع {وما كانوا يعرشون} من الأشجار والأعناب والثمار، أي يجعلون له عريشاً وسقفاً.

(٩) سورة القصص: ٦ و٧.

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٩) إِنَّ هَؤُلاَءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٠) قَالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤١) وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذلِكُمْ بَلاَءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤٢) وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٣) وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٤)

[١٣٩] {وجاوزنا ببني إسرائيل البحر} أي قطعنا لهم بحر مصر الأحمر بأن جعلنا لهم فيه طُرقاً يابسة ليعبروا {فـ} لما عبروا {أتوا على قوم} أي مرّوا على جماعة {يعكفون على أصنام لهم} أي يقبلون عليها ملازمين لها مقيمين عندها {قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً} مجسماً حتى نعبده {كما لهم آلهة} يعبدونها {قال} موسى (عليه السلام): {إنكم قوم تجهلون} ربكم ولا تعظّمونه فإنه لا يجوز أن تُعبد الأصنام، لأنه شرك بالله سبحانه.

[١٤٠] {إن هؤلاء} القوم الذين يعبدون الأصنام {متبّر} أي مدمّر مُهلك، من «التبار» بمعنى الهلاك {ما هم فيه} من عبادة الأصنام، أي أن هذه العبادة توجب الهلاك والدمار {وباطل ما كانوا يعملون} أي أن عملهم باطل لا نصيب له من الحق والحقيقة.

[١٤١] ثم {قال} موسى (عليه السلام) لقومه على نحو الاستنكار والتوبيخ: {أغير الله أبغيكم إلهاً} أي ألتمس وأطلب لكم إلهاً غير الله، إن هذا لايكون أبداً {و} الحال أنه إلهكم الوحيد و {هو} الذي {فضلكم على العالمين} أي عالمي زمانهم، فإنه هو المعطي المفضل، فكيف أتخذ إلهاً غيره؟!

[١٤٢] ثم خاطب الله سبحانه بني إسرائيل الموجودين في زمان الرسول (صلى الله عليه وآله) ليعدّد نعمه عليهم، استدراجاً لهم إلى الإيمان، وتذكيراً بما سبق لهم منه سبحانه من الإحسان {و} اذكروا يا بني إسرائيل {إذ أنجيناكم من آل فرعون} خلّصناكم منهم، والمراد بـ«آل فرعون» قومه وذووا السلطة في ملكه، حين كانوا {يسومونكم} أي يولونكم ويفعلون بكم ـ من «سام فلاناً» إذا عذبه وأذّله ـ {سوء العذاب} أي العذاب السيئ.

ثم بيّن سبحانه طرفاً من ذلك العذاب بقوله: {يقتلون أبناءكم} «التقتيل» تفعيل من القتل، أي يُكثرون القتل في الذكور منكم. فقد كان فرعون يقتل أولاد بني إسرائيل، لئلاّ يولد فيهم مولود ذكر يذهب بملكه ـ حسب ما أخبره المنجّمون ـ ثم بعد ذلك وإن علم بموسى وأرسل إليه، أخذ يقتل الذكور ثانية، لئلاّ يجتمعون حول موسى وتقوى شوكته فيعارضوه في سلطانه {ويستحيون نساءكم} أي يستبقونهن أحياء للخدمة والاستمتاع والإذلال {وفي ذلكم} أي في تخلية فرعون وما يفعل بكم {بلاء} أي ابتلاء {من ربكم} من قبله سبحانه ليجازي الصابرين {عظيم} أو المعنى: في طرف ما فعل بكم من النجاة «بلاء» أي نعمة، فإنه يأتي بمعناها «من» طرف ربكم «عظيم» حيث تفضل عليكم بنعمة النجاة من ذلك الشقي.

[١٤٣] ثم ذكر سبحانه تمام نِعَمه على بني إسرائيل فقال: {وواعدنا} أي وعدنا {موسى ثلاثين ليلة} فقد روي أن موسى (عليه السلام) لما كان بمصر وعد بني إسرائيل أنه إذا أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب من عند الله فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب، فوعد الله موسى أن يأتي إلى الطور ويصوم ثلاثين يوماً ثم يعطيه الكتاب الذي فيه الشرائع. ولعل ذكر «ليلة» دون «يوم» لأجل أن الليل أقرب إلى المناجاة، فإن الظلمة تشع في النفس الانقطاع والخوف والرجاء، مما يجعل الإنسان أقرب إلى الله سبحانه من النهار، ولذا كان العبّاد يتخذونها ميقاتاً لعبادتهم {وأتممناها} أي أكملنا الثلاثين ليلة {بعشر} ليالٍ حتى صار المجموع أربعين {فتم ميقات ربه} أي الوقت المضروب لإعطاء الكتاب {أربعين ليلة} وقد كان ذلك لأجل تهيئة موسى (عليه السلام) لأهلية إعطاء الكتاب، ولئن يعرف الناس عظمة الكتاب حتى أن مثل موسى (عليه السلام) لا يُعطى له إلا بعد الصيام والقيام.

ولا يخفى أن الإتمام عشراً لا ينافي وعده ثلاثين، فإن المقرّر كان إعطاء الكتاب بعد إتمام الثلاثين، لا بمجرد إكمال الثلاثين، وإنما قال: «فتم ميقات ربه» لئلا يوهم أن المعنى: أكملنا الثلاثين بعشر حتى كملت ثلاثين، نحو: «أكملت العشرة بدرهمين».

{و} حين أراد موسى (عليه السلام) الخروج إلى ميقات ربه أوحى إلى أخيه هارون (عليه السلام) إذ {قال موسى لأخيه هارون اخلفني} أي كن خليفتي {في قومي} فإن هارون وإن كان نبياً لكنه لم يكن رئيساً، ففوض إليه موسى (عليه السلام) منصب الرئاسة {وأصلح} فيما بينهم وأصلحهم {ولا تتبع سبيل المفسدين} الذين يأمرون بالفساد ويُفسدون الناس، وهارون (عليه السلام) وإن كان منزّهاً عن ذلك، إلاّ أن ذلك لتنبيه القوم وإرشادهم إلى عمل هارون، فإن الإنسان قد يوصي لأجل الوصيّ، وقد يوصي لأجل مَن يسمع.

[١٤٤] {ولما جاء موسى} (عليه السلام) {لميقاتنا} «الميقات» هو الزمان أو المكان الذي قدّر ليعمل فيه، ولذا يقال: «ميقات الحج» للمكان المقدّر فيه الإحرام، والمعنى: أنه لما انتهى موسى إلى

المكان الذي وقّتنا له وأمرناه بالمسير إليه لنُنزل عليه التوراة، أو المراد الميقات الزماني، أي لما انتهى إلى زمان المواعدة {وكلّمه ربّه} بأن خلق الكلام في الفضاء حتى سمعه موسى (عليه السلام)، فإن الله سبحانه منزّه عن اللسان واللهاة وسائر الأمور المرتبطة بالكلام الجسدي.

{قال} موسى: يا {رب أرني} نفسك {أنظر إليك} نظر العيان. وقد كان هذا السؤال من موسى إجابة لطلب قومه، فقد روي أنه لما كلّمه الله وقرّبه نجيّاً رجع إلى قومه فأخبرهم بذلك، فقالوا: لن نؤمن لك حتى نسمع كلامه كما سمعته، فاختار منهم سبعين فخرج بهم إلى طور سيناء فأقامهم في سفح الجبل وصعد إلى الطور وسأل الله أن يكلمه ويسمعهم كلامه، فكلمه الله فسمعوا كلامه من فوق وأسفل ويمين وشمال ووراء وأمام، لأن الله أحدثه في الشجرة ثم جعله منبعثاً منها حتى سمعوه من جميع الوجوه، فقالوا: لن نؤمن بأن هذا الذي سمعناه من جميع الوجوه كلام الله حتى نرى الله جهرة، فلما قالوا هذا القول العظيم واستكبروا وعتوا بعث الله عليهم صاعقة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم فماتوا. فقال موسى: يا رب ما أقول لبني إسرائيل إذا رجعت إليهم وقالوا إنك ذهبت بهم فقتلتهم لأنك لم تكن صادقاً فيما ادعيت من مناجاة الله إياك؟

فأحياهم وبعثهم معه فقالوا: لو أنك سألت الله أن يريك تنظر إليه لأجابك فتخبرنا كيف هو ونعرفه حق معرفته، فقال: يا قوم إن الله لايُرى بالأبصار ولا كيفية له وإنما يُعرف بآياته ويُعلم بعلاماته، فقالوا: لن نؤمن لك حتى تسأله، فقال موسى: يا رب إنك قد سمعت مقالة بني إسرائيل وأنت أعلم بصلاحهم، فأوحى الله إليه: يا موسى سلني ما سألوك فلن أؤاخذك بجهلهم فعند ذلك قال موسى: رب أرني انظر إليك {قال} الله تعالى في جواب موسى: {لن تراني} أبداً، فإن «لن» لنفي الأبد، وذلك لاستحالة رؤية الله سبحانه لا في الدنيا ولا في الآخرة، فإن للرؤية شرائط كلها مفقودة بالنسبة إليه سبحانه، ومنها أن يكون المرئي جسماً أو عرضاً، والله سبحانه ليس بجسم ولا عرض {ولكن انظر إلى الجبل} الذي كان هناك {فإن استقر مكانه} حال التجلّي {فسوف تراني} وقد كان هذا من باب التعليق بالمحال، فإن استقرار الجبل مكانه مع إرادة الله عدم الاستقرار له كان مستحيلاً. فيكون التعليق على ذلك مثل قوله: (حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ)[١٠]، وقوله: (إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ)[١١]، (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا)[١٢]، مما جرى العرف بالتعليق على شيء لا يكون، في بيان أن الشيء الفلاني لايكون {فلما تجلّى ربه} أي رب موسى {للجبل جعله دكّاً} أي مستوياً مع الأرض، والمراد بالتجلي: خلق نور يشع على الجبل، أو إظهار قدرة وعظمة له {وخرّ موسى صعقاً} أي وقع مغشياً عليه من الرعب والخوف {فلما أفاق} من غشيته ورجعت قواه إليه {قال} موسى :

(١٠) سورة الأعراف: ٤١.

(١١) سورة الزخرف: ٨٢.

(١٢) سورة الأنبياء: ٢٣.

{سبحانك} أي أنزهك تنزيهاً عما لايليق بك من رؤيةٍ وغيرها من النواقص {تُبت إليك} أي رجعت إليك في أموري، ولم يكن ذلك توبة عن ذنب بل إنه على وجه الانقطاع والتخضُّع، فإن الإنسان إذا رأى الأمور الجليلة يذكر الله بالتسبيح والتقديس والاستغفار، والسر أن هذه الألفاظ صارت إعلاماً للخضوع والخشوع، لكثرة ما استعملت فيهما. ومنه الحديث: «كان النبي يستغفر الله من غير ذنب»(١٣) وإن شئت قلت: إنه إنشاء مفهوم التوبة بداعي التعظيم، كما أن أدوات الاستفهام في كلامه سبحانه هي لإنشاء مفهوم الاستفهام بداعي آخر، كالمفاضلة في قوله: (هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ)(١٤)، {وأنا أول المؤمنين} بك وبما يليق بك من الصفات.

---

(١٣) راجع وسائل الشيعة: ج٧، ص١٨٠.

(١٤) سورة الزمر: ١٠.

قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٥) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٦) سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٧) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٨) وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٩) وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٥٠)

[١٤٥] {قال} الله سبحانه: {يا موسى إني اصطفيتك} أي اخترتك {على الناس} وفضّلتك عليهم {برسالاتي} حيث ألقيت إليك أنواع الرسالة في الأصول والفروع {وبكلامي} حيث كلّمتك دون سائر خلقي. والعطف إما للبيان، أو المراد من الرسالة غير ما كُلّم فيه، بل كانت بالإلهام، ومن الكلام غير ما أرسل به، بل كان لسائر الأمور {فخذ} يا موسى {ما أتيتك} أي أعطيتك من التوراة وتمسك به {وكن من الشاكرين} لنعمتي، والشكر إما بالجنان بأن يعرف الإنسان قدر المنعم وفضله، وإما باللسان بأن يعترف بجميله، وإما بالأركان بأن يأتي الإنسان بما يستحق المنعم من التعظيم والإجلال والخضوع، قال تعالى: (اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا)[١٥].

[١٤٦] {وكتبنا له} أي لموسى (عليه السلام) {في الألواح} جمع «لوح»، وهي القطعة من الخشب أو نحوها، وقد نزلت على موسى (عليه السلام) ألواح مكتوب فيها التوراة {من كل شيء} مما يحتاج إليه الناس في أمور دينهم ودنياهم {موعظة} هذا تفسير لقوله «كل شيء»، وهي عبارة عن التحذير عن القبيح، والتبصير بمواقع الخوف {وتفصيلاً لكل شيء} أي بياناً وتوضيحاً لكل أمر كانوا محتاجين إليه. ومن المعلوم أن المراد بيان الخطوط العامة للحياة الدينية، لا كل جزئي جزئي، وهذا هو المراد من قوله: (لاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)[١٦]، لو أريد بالكتاب القرآن، وهو المراد من قول الرسول (صلى الله عليه وآله): «ما من شيء يقربكم إلى الجنة، إلاّ وقد أمرتكم به، وما من شيء يباعدكم عن النار إلاّ وقد نهيتكم عنه»[١٧]، {فخذها} أي الألواح {بقوة} أي بجدٍّ واجتهاد، والمراد

---

(١٥) سورة سبأ: ١٤.

(١٦) سورة الأنعام: ٦٠.

(١٧) راجع مستدرك وسائل الشيعة: ج١٣، ص٣٠.

بأخذها: العمل بما فيها، كما قال سبحانه: (يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ)[١٨]، {وأمر قومك} أي بني إسرائيل {يأخذوا بأحسنها} وهذا تحريض بالأخذ بالفضائل، فإن الشريعة لها عرض كبير للأمور يبتدئ من الواجبات وينتهي إلى أكمل الفضائل وهذا من باب شدة الجذب بقصد الاعتدال، كما يُشد الحمل من جانب كثيراً ليعتدل {سأوريكم دار الفاسقين} أي جهنم، فاحذروا أن تخالفوا وتفسقوا حتى تكونوا منهم.

[١٤٧] {سأصرف عن آياتي} أي أصرفهم عن الإيمان بها، أو أصرفهم عن النيل منها {الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق} فعلى المعنى الأول: أن ذلك لكونهم تكبروا، فلم يلطف بهم الله سبحانه لطفه الخفي بل صرفهم عن الإيمان وخلّى بينهم وبين إضلال الشيطان، كما يصرف الإنسان ولده العاصي عن لطفه فلا يعتني بشأنه. وعلى المعنى الثاني: يكون المعنى حفظ الآيات عن الزيادة والنقصان كما قال سبحانه: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)[١٩]، والأول أقرب، وقوله: «بغير الحق» ليس قيداً احترازياً، بل لبيان أن التكبر لا يكون إلا بغير الحق، نحو: (يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ)[٢٠].

ثم وصف سبحانه أولئك بقوله: {وإن يروا} أي يرى المتكبرين {كل آية} ومعجزة دالة على صدق الأنبياء وسائر الأمور الحقة {لا يؤمنوا بها} حيث قد لجّوا في الفساد واستحوذ عليهم الشيطان {وإن يروا سبيل الرشد} أي طريق الهدى والحق، الموجب للرشد والنمو العقلي والمادي، فإن الرشد بمعنى النمو {لا يتخذوه سبيلاً} فلا يسلكوه {وإن يروا سبيل الغي} أي طريق الغواية والضلال {يتخذوه سبيلاً} لأنفسهم فيسلكوه {ذلك} أي سبب صرفهم عن الآيات . على المعنى الأول أو سبب اجتنابهم طريق الرشد واتخاذهم طريق الغي {بأنهم كذبوا بآياتنا} أي بحججنا ومعجزات رسلنا {وكانوا عنها غافلين} لا يتفكرون فيها ولا يتعظون بها، والمراد تشبيههم بالغافل الذي يغفل عن صلاحه فلا يعمل بمقتضاه.

[١٤٨] {والذين كذبوا بآياتنا} أي المعجزات والحجج {و} كذبوا بـ {لقاء الآخرة} بأن أنكروا القيامة والبعث والنشور {حبطت أعمالهم} التي عملوها، فإن كل إنسان يعمل بعض الأعمال الخيرة، فإذا كان مؤمناً يُثاب عليها، وإن كان كافراً لم يثب عليها، وهذا لا ينافي خفة العذاب، كما ورد في حاتم وأنوشروان وغيرهما {هل يجزون} أي لايُجزى هؤلاء المتكبرون، فإن الاستفهام للإنكار {إلا ما كانوا يعملون} فليس حبط أعمالهم ظلماً لهم.

[١٤٩] ثم يبيّن سبحانه طرفاً آخر من قصة بني إسرائيل، وهي قصة عبادتهم للعجل حين كان موسى (عليه السلام) في الطور {واتخذ قوم موسى من بعده} أي من بعد خروج موسى (عليه السلام)

---

(١٨) سورة مريم: ١٣.

(١٩) سورة الحجر: ١٠.

(٢٠) سورة البقرة: ٦٢.

إلى ميقات ربه {من حليّهم} الذهبية التي كانت لهم، من سوار وخلخال وقلادة وغيرها {عجلاً} أي صبّوا الحلي في صورة العجل وهو ولد البقر {جسداً} أي لا روح فيه، فكان تمثال العجل وصورته، لا واقعه وحقيقته، ولعل هذا القيد لئلاّ يُتوهّم أن القوم ألبسوا الحلي عجلاً حقيقياً، فإن موسى (عليه السلام) لما أبطأ أشاع رجل من بني إسرائيل واسمه «السامري» أن موسى قد مات ثم جمع حلي القوم وصاغها عجلاً، وقال لبني إسرائيل: إن هذا إلهكم، وقد كان العجل من آلهة مصر، وكانوا يألفون عبادته، ولذا قبلوه، وقد طلبوا سابقاً من موسى (عليه السلام) أن يجعل لهم إلهاً.

وفي بعض التفاسير: إن القوم الذين رآهم بنو إسرائيل على البحر كانوا يعبدون العجل، حين قالوا لموسى: (اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ)[٢١]، وكان العجل الذي صنعه السامري {له خُوار} أي صوت كصوت العجل. وقد اختلف في ذلك، ففي بعض التفاسير أن السامري صنعه بحيث إذا هبّت عليه الريح دخلت في جوفه فأحدثت صوتاً. وفي تفسير آخر: إن «السامري» رأى جبريل (عليه السلام) راكباً فرساً حين عبروا البحر، فأخذ من تحت حافر فرسه التراب، فأدخله جوف العجل، وكان منه الخوار، أو أن الخوار كان منه سبحانه حيث خلقه فيه للابتلاء.

ولا يستشكل: أنه كيف يخلق ذلك، وهو موجب لافتتان الناس؟

فإن الجواب واضح: إذ المحل لم يكن محل اشتباه فقد علموا جميعاً أن الله سبحانه لا يُرى وليس بجسم، فكان ضلالهم بسوء اختيارهم.

{ألم يروا} أولئك الذين عبدوا العجل {أنه لا يكلمهم} فمن هو عاجز عن أقل شيء وهو الكلام كيف يكون إلهاً؟ {ولا يهديهم سبيلاً} أي لا يرشدهم إلى خير ليأتوه ولا إلى شر ليجتنبوه {اتخذوه} أي اتخذوا العجل إلهاً، فإن كثيراً منهم أطاعوا السامري في عبادة العجل، ولم يطيعوا هارون فيما وعظهم وأنذرهم {وكانوا ظالمين} لأنفسهم بهذه العبادة حيث حرموها من خير الدنيا وسعادة الآخرة.

[١٥٠] {ولما سقط في أيديهم} أي سقط البلاء في يدهم، وهذا من باب التمثيل والتشبيه، فإن الإنسان إذا عمل عملاً فندم، يقال: «سقط في يده» كأن الشيء الذي اكتسبه لم يَرُج، ولم يذهب كما هو عادة المتاع الجيد، بل سقط في يده وبقي عنده، وكأن الأصل فيه أن المتاع يسقط من محله إلى مستقره، وهو الذي يصرفه لأجل حوائجه، فإذا بقي عند الواسطة ـ وهو التاجر ـ كان ساقطاً في يده، دون يد المستهلك {ورأوا أنهم قد ضلوا} فإنهم بعدما عبدوا العجل ندموا فيما أفرطوا، كما هو شأن غالب الحركات الاعتباطية فإن الناس يأتون بها من فورهم ثم يندمون حينما يتفكرون {قالوا لئن لم يرحمنا

---

(٢١) سورة الأعراف: ١٣٩.

ربّنا} بقبول توبتنا {ويغفر لنا} ما فعلناه من عبادة العجل {لنكونن من الخاسرين} الذين خسروا أنفسهم باستحقاق العقاب، وفوت الثواب.

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥١) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥٢) إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٣) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٥٤) وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٥) وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٦)

[١٥١] {ولما رجع موسى} من الميقات {إلى قومه} وعرف الأمر صار {غضبان أسفاً} أي حزيناً على ما صدر منهم من عبادة العجل، أو المراد رجع غضبان آسفاً، لما أعلمه الله سبحانه من عبادتهم العجل {قال} لهم: {بئسما خلفتموني} أي عملتم خلفي {من بعدي} أي بعد ذهابي إلى الميقات، فإن عملكم بعدي كان عملاً سيئاً {أعجلتم أمر ربكم} أي استعجلتم قضاء الله وعقابه، فكأن العاصي لابد وأن يلاقي العقاب، فإذا فعل فعلاً شنيعاً استعجل العقاب {وألقى الألواح} المكتوب فيها التوراة من يده تضجراً من عملهم {وأخذ برأس أخيه} هارون {يجره إليه} إما لينحّيه ناحية فيناجيه في أمر القوم، وإما إظهاراً للغضب، ولم يكن ذلك إلا استنكاراً عملياً لعمل القوم، كما يصيح الوالد على ولده البريء، فيما إذا عمل بعض أهل البيت عملاً مخالفاً، يريد بذلك إظهار غضبه على عملهم.

{قال} هارون: يا {ابن أم} هذه الكلمة للاستعطاف لأن ذكر الأم يشعّ في النفس حناناً وليناً، وقد قصد هارون بهذا التعبير التسكين من غضب موسى (عليه السلام) {إن القوم استضعفوني} أي اتخذوني ضعيفاً، فلم يعملوا بكلامي {وكادوا يقتلونني} أي همّوا بقتلي حين شددت عليهم في استنكاري عليهم عبادة العجل {فلا تشمت بي الأعداء} فإن فعلك هذا يوهم أنك غاضب عليّ فيفرح الأعداء حيث يظنون أنهم ألقوا الخلاف بين الأخوين وجعلوني مغضوباً عليه في نظرك. ومعنى الشماتة: إظهار الفرح بوقوع عدوهم في المحذور {ولا تجعلني مع القوم الظالمين} الذين عبدوا العجل، فلا تشملني معهم في الغضب علينا جميعاً، فإن ذلك من عملهم.

إن هذا النحو من إظهار الغضب على الحبيب البريء، لتنبيه العدو الآثم، من أساليب البلاغة العملية حيث أن الحبيب لا يحمل موجدة على حبيبه بسبب هذا العمل، بخلاف ما لو عُمل بالآثم فإنه يجعله أبعد من الصواب، إذ يسبب مثل ذلك في نفسه بغضاً وعداوة زائدة، ومثل خطاب البريء، ما يفعله الإنسان بنفسه عند إرادة إظهار الغضب من ضرب نفسه، أو نتف شعره، أو شق جيبه، أو ما أشبه ذلك.

[١٥٢] {قال} موسى (عليه السلام) بعد ذلك: {رب اغفر لي ولأخي} قال على وجه الانقطاع إلى الله سبحانه، لا لأنه صدر منهما عصيان أو ذنب، وقد تقدم أن هذه الكلمة تقال عند إظهار الخضوع والخشوع، وإن كان الأصل فيها طلب غفران الذنب {وأدخلنا في رحمتك} أي لطفك أو جنتك {وأنت أرحم الراحمين} فإن رحمتك أكبر من رحمة كل راحم، وهذا يذكر في آخر الدعاء استعطافاً، كما يقال: «أنت أجود الأجودين» لاستدعاء الجود، لأنه اعتراف بالأفضلية.

[١٥٣] ثم قال موسى (عليه السلام)، أو استئناف من الله سبحانه: {إن الذين اتخذوا العجل} إلهاً معبوداً {سينالهم} أي يلحقهم {غضب من ربهم} في الآخرة، وهو موجب للنار {وذلة في الحياة الدنيا} فإنهم يصبحون أذلاء، يكثر فيهم القتل والطرد، ويُذكرون بسوء أبداً. وقد مر تفسير قوله تعالى: (ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ)(٢٢)، {و} كما جازينا اليهود بهذا الصنيع {كذلك نجزي} سائر {المفترين} الذين يفترون على الله سبحانه باتخاذ الأصنام شريكاً له، فإنه افتراء على الحقيقة والواقع.

[١٥٤] {و} لكن المعصية لا تسبب يأس صاحبها، فإن من تاب، تاب الله عليه فـ {الذين عملوا السيئات} أي الشرك والمعاصي {ثم تابوا من بعدها} أي بعد السيئات {وآمنوا} إيماناً صادقاً {إن ربك} يا رسول الله {من بعدها} أي بعد السيئات، أو بعد التوبة، ولعل التكرار لإفادة عدم قبول التوبة مع الإصرار على المعصية، كما أنه لا توبة مع الإصرار {لغفور} يغفر الذنب {رحيم} يرحم التائب بفضله ولطفه.

[١٥٥] {ولما سكت} أي: سكن، وفيه من البلاغة ما لا يخفى {عن موسى الغضب} بأن زالت فورته، فإن فورة الغضب تكون أول ملاقاة المكروه {أخذ الألواح} التي كان (عليه السلام) رماها إظهاراً لضجره، مما فيها التوراة {وفي نسختها} أي ما نسخ ورقم فيها {هدىً} يهدي إلى الحق {ورحمة} موجب ترحّم وتنعّم {للذين هم لربهم يرهبون} أي يخشونه ولا يعصونه.

[١٥٦] ثم بيّن سبحانه قصة سبق الإشارة إليها، وهي قصة طلب القوم أن يروا الله جهرةً وقد كررت أولاً لأجل ذكرها في قصة موسى، وثانياً لأجل بيان أنها كانت من قومه، وقيل: إنها قصة ثانية، ذهبوا معه (عليه السلام) للاعتذار من عبادة العجل، فإنهم طلبوا من موسى أن يصحبهم ليسمعوا كلام

---

(٢٢) سورة البقرة: ٦٢.

الله سبحانه {واختار موسى قومه} أي من قومه {سبعين رجلاً لميقاتنا} ليسمعوا كلام الله سبحانه بأسماعهم، فيزدادون إيماناً، ولما سمعوا كلام الله سبحانه، لم يقنعوا وطلبوا من موسى (عليه السلام) أن يروا الله جهرة، رؤية الأبصار، لا رؤية العلم بالقلب {فلما أخذتهم الرجفة} الصاعقة التي رجفت بسببها أبدانهم وقلوبهم وهلكوا جميعاً لسؤالهم الشنيع وعنادهم في الأمر بعدما نصحهم موسى (عليه السلام)، إن ذلك غير ممكن كما تقدمت الإشارة إليه. وهنا خاف موسى (عليه السلام) أن يتهمه بنو إسرائيل أنه هو الذي قتلهم، لما لم يتمكن من إسماعهم كلام الله سبحانه، فيرتدوا عن الدين، ولذا {قال} موسى (عليه السلام) لله: يا {رب لو شئت أهلكتهم من قبل} هذا الموقف حين كانوا في بلادهم، لكن الآن ماذا أقول لبني إسرائيل إذا قالوا إنك قتلتهم؟ {وإياي} وهذا للتخضّع والاستكانة، وتسليم الأمر إليه سبحانه، فإنه تعالى لو شاء أهلك الجميع وأماتهم، فكلنا تحت إرادتك وفي قبضتك.

{أتهلكنا} يا رب {بما فعل السفهاء منا} وقد جاء الرجاء بصيغة الاستفهام، كما أنك إذا رجوت الأمير في سماع كلامك تقول: «هل يسمع الأمير كلامي»، أي أن الإهلاك بسبب ما طلبه السفهاء من الرؤية، خلاف رجائنا فيك، وإن كان بالاستحقاق، حيث أن مثل هذا الطلب من السفهاء وسكوت العقلاء عنهم ـ بعدم إنكار المنكر. موجب لاستحقاق العقوبة، وإضافة الهلاك إلى ضمير المتكلم مع الغير «نا» باعتبار كون موسى (عليه السلام) ومن معه كتلة واحدة، فهلاك بعضهم هلاك للجميع ـ مجازاً ـ .

ثم بيّن (عليه السلام) أن ذلك الهلاك لم يكن اعتباطاً، حتى لا يظن الظان أن موسى (عليه السلام) في مقام الاعتراض {إن هي} ما هذه الرجفة التي أصابتهم {إلاّ فتنتك} واختبارك، إنك يا رب صنعت ذلك لأجل الامتحان، والإهلاك امتحان للناس ليعتبروا، ولنفس الهالكين بعد حياتهم {تضل بها} أي بالفتنة {من تشاء} ممن لم تنفعه الهداية، حيث تتركه وشأنه ليضل. وقد سبق أن الفعل ينسب إلى الله تعالى، لأن الأسباب والآلات منه تعالى، كما يقال: «أفسد فلان ولده» إذا أعطاه المال ولم يؤاخذه بعمله الفاسد {وتهدي من تشاء} لم يذكر هنا «بها» لأن الهداية تكون بدون الاختبار أيضاً، فالهداية أعم من الابتدائية ومما تتعقب الاختبار {أنت} يا رب {ولينا} مولانا وأولى بالتصرف فينا فلك ما تفعل ولا تُسأل عن فعلك {فاغفر لنا} بستر ذنوب من أذنب منّا {وارحمنا} بفضلك ورحمتك {وأنت خير الغافرين} فإن غفرانك بلا منة وذلة. ثم إنه سبحانه أحيى السبعين الذين هلكوا، كما تقدم في سورة البقرة.

وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآَخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٧) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٨) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٩) وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٦٠)

[١٥٧] {واكتب لنا} يا رب {في هذه الدنيا حسنة} الشيء الحسن، وهو جنس شامل لأنواع الحسنات من أمن وصحة ورفاه وفضيلة وغيرها {وفي الآخرة} حسنة، بالجنة والرضوان {إنا هدنا إليك} من «هاد» بمعنى «رجع» أي رجعنا بتوبتنا إليك، فكأن العاصي يبتعد عنه سبحانه، ثم إذا تاب يرجع إليه، تشبيهاً للبعد والقرب عن الرحمة، بالقرب والبعد الحسّيّين.

وموسى (عليه السلام) وإن لم يكن داخلاً في العصيان لكن العادة جرت على أن يتكلم الرؤساء عن جماعتهم {قال} الله سبحانه في جواب موسى وطلبه التوبة: {عذابي أصيب به من أشاء} ممن استحق ذلك بالكفر والمعصية، فالمشيئة ليست باعتبار الزيادة عمّن استحق، بل باعتبار النقصان، فإنه تعالى لا يعذب بعض المستحقين، لا أنه يعذب المستحقين {ورحمتي وسعت كل شيء} فإن الخلق والرزق وغيرهما كلها رحمة منه سبحانه، وفي الدعاء: «يا من سبقت رحمته غضبه»(٢٣)، باعتبار أن الغضب لا يكون إلا بعد الخلق والرزق والعصيان، فالرحمة سابقة.

وفي هذا الجو الرقيق، الذي ترقّقت فيه قلوب بني إسرائيل يشير سبحانه إلى النبي الأمي، ليتركّز في قلوبهم، فإن الأمور تتركز في القلوب أكثر إذا رقّت {فسأكتبها} أي اكتب رحمتي. وهذا على سبيل الاستخدام، فإن المراد بالرحمة أولاً جميع أقسام الرحمة، والمراد بها من الضمير ثانياً: الرحمة الخاصة الزائدة {للذين يتقون} الكفر والمعاصي {ويؤتون الزكاة} أي يعطونها {والذين هم بآياتنا} أي بحججنا ودلالاتنا {يؤمنون}. ثم بيّن أولئك بقوله:

[١٥٨] {الذين يتبعون الرسول النبي} أي أن الذين تُكتب لهم الرحمة الكاملة هم التابعون لمحمد (صلى الله عليه وآله) {الأمي} نسبة إلى أم القرى «مكة» وبمعنى الذي لم يتعلم عند معلم ـ وإن

(٢٣) مصباح الكفعمي: ص٦٦٧.

كان (صلى الله عليه وآله) يعلم كل شيء بوحي الله وإرادته. والعرب تسمي من لم يتعلم بـ«الأمي»، نسبة إلى الأم، كأنه بقي مثل ما ولدته أمه {الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل} فإن الكتابين بشّرا به (صلى الله عليه وآله) وأخبرا بنعته، وإنما حرّفهما ـ بعد ذلك ـ اليهود والنصارى.

وللشيخ محمد صادق فخر الإسلام، في كتابه «أنيس الأعلام» قصة طويلة حول هذا الموضوع، ولم يكن هذا بدعاً، فقد كان كل نبي سابق يبشر بالنبي اللاحق، كما أن كل نبي لاحق يصدّق النبي السابق، ونحن اليوم نرى صفة الإمام المهدي (عليه السلام) في كتبنا، حيث وُعدنا بظهوره «عجل الله فرجه».

ثم بيّن سبحانه سائر صفاته التي تجعل من دينه دين الفضيلة والحرية الصحيحة والسعادة {يأمرهم بالمعروف} فما يأمرهم به يكون معروفاً يقبله عرف العقلاء ويرتضيه {وينهاهم عن المنكر} فما ينهاهم عنه يكون منكراً عند عرف العقلاء، فأمره ونهيه حسب الموازين العرفية العقلية، لا اعتباطاً واشتهاءً {ويحل لهم الطيبات} المستلذات الحسنة، من مأكل ومشرب ومنكح ومسكن ومركب وغيرها {ويحرم عليهم الخبائث} القبائح التي تعافها النفوس المستقيمة، فتحليله وتحريمه ليسا اعتباطين، بل لشيء في ذات الحلال والحرام، بخلاف تحليل سائر الناس وتحريمهم، فإنهم قد يحرمون الطيب، كما حرمت الجاهلية السائبة وما إليها، وقد يحللون الخبيث كما أن اليهودية والنصرانية ومن إليهما يحللون الخمر ولحم الخنزير. ثم لا يخفى أن الأمر والنهي أعم من التحليل والتحريم، لكن حيث تقابلا، كان لكل منهما مصداق غير مصداق الآخر.

{ويضع عنهم إصرهم} أي ثقلهم، فإن الإصر هو الحمل الثقيل ومعنى «وضعه» أن مناهجه سهلة سمحة لا ثقل فيها ولا صعوبة {و} يضع عنهم {الأغلال التي كانت عليهم} أغلال جمع «غِلّ»، وهو ما يُقيد يد الإنسان أو رجله أو غيرهما، فإن من خواص الإسلام أنه يطلق الحريات المعقولة، فالسفر والإقامة والتجارة والزراعة والصناعة والبيع والشراء والكلام والكتابة والتجمع وغيرها، كلها مباحة لا قيود عليها إلا بعض الشرائط الطفيفة التي هي في صالح المجتمع والفرد، ولا يُعلم مدى ذلك إلا بالمقايسة إلى الأنظمة والمناهج الدنيوية التي كلها كبت واستعباد واستغلال {فالذين آمنوا به} أي بالرسول محمد (صلى الله عليه وآله) {وعزّروه} أي عظّموه ووقروه {ونصروه} على أعدائه {واتبعوا النور الذي أنزل معه} أي القرآن، فإنه نور يُهتدى به في مسالك الحياة المظلمة، كما أن الضياء يهتدى به في مسالك الليل المظلم، أو المراد: علي والأئمة كما في بعض الأحاديث، أو الجميع، لأنه لفظ عام، وكل واحد من هذه الأمور مصداق، و«الإنزال» بالنسبة إلى الأئمة ليس فيه محذور، لما سبق، أن التعبير بالإنزال في مثل

هذه الموارد من جهة الله سبحانه الواهب لهذه الأشياء كما قال: (وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ)[٢٤]، وكما قيل في قوله سبحانه: (اهْبِطُوا)[٢٥]، {أولئك} الذين آمنوا بهذا النبي {هم المفلحون} الفائزون بخير الدنيا والآخرة.

[١٥٩] وقبل أن يرجع السياق إلى تتميم قصة موسى (عليه السلام)، تتميماً لما سبق من وصف النبي (صلى الله عليه وآله)، فيخاطبه سبحانه بقوله: {قل} يا رسول الله للناس: {يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً} أرسلني إليكم لأدعوكم إلى الله {الذي له ملك السماوات والأرض} فهو المالك لهما المتصرف فيهما {لا اله إلا هو} فلا شريك له {يحيي ويميت} فالجماد يجعله حياً نباتاً أو إنساناً أو حيواناً، والأحياء يميتهم، ولعل ذكر هذه الصفات لرد النصارى واليهود الذين جعلوا لله شريكاً وولداً، ولرد المشركين الذين كانوا ينسبون الإحياء والإماتة إلى الأصنام {فآمنوا} أيها الناس {بالله} إيماناً صحيحاً {ورسوله} محمد (صلى الله عليه وآله) {النبي الأمي} وكأنه أتي بهذا الوصف للتناسب مع ما في الكتابين السابقين {الذي يؤمن بالله وكلماته} فإنه آمن أولاً ثم أمركم بالإيمان، لا مثل كثير من الرؤساء الذين هم أنفسهم لا يطبقون المبادئ التي يدعون إليها. ولعل المراد بالكلمات: الكتب السابقة والقرآن الكريم {واتبعوه} فيما يأمركم وينهاكم {لعلكم تهتدون} أي لتكونوا مهديين، فإن الفعل قد ينسلخ من معناه الزمني ليدل على أصل المعنى المادي، أو المراد تهتدون إلى الجنة والرضوان، حتى يصح تعقّب الاهتداء لما تقدم.

[١٦٠] وحيث فرغ السياق عن الفذلكة المرتبطة بذكر النبي محمد (صلى الله عليه وآله) رجع إلى قصة موسى (عليه السلام) وقومه، ولما أن وصف سبحانه قوم موسى (عليه السلام) بالكفر وعبادة العجل وغير ذلك، ذكر أن منهم من بقوا على الإيمان والطاعة {ومن قوم موسى أمة} أي جماعة {يهدون بالحق} أي يدعون إلى الحق ويرشدون إليه {وبه} أي بالحق {يعدلون} أي يحكمون بالحق ويعدلون في حكمهم. وهذا واضح، فإن كل أمة انحرفت لا بد وأن يبقى فيها أناس معتدلون، وكذلك كان قوم موسى (عليه السلام) في زمانه وبعده إلى زمان الرسول (صلى الله عليه وآله)، فكانوا إذا رأوا عيسى نبياً آمنوا به، وإذا رأوا الرسول مبعوثاً صدقوه واتبعوه، لكن الكثرة الساحقة منهم لما كانت منحرفة، كانت «عمومات الخطاب القرآني» تنصب عليهم، فإن البلغاء غالباً يتكلمون حول الأمور بمراعاة الغالب، فيقال: «أهل مدينة كذا حسان الوجوه، أو قباح، أو كرماء، أو بخلاء أو جبناء، أو ما أشبه» وهم يريدون الكثرة الغالبة، لا الجميع.

---

(٢٤) سورة الحديد: ٢٦.

(٢٥) سورة البقرة: ٣٧.

وَقطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦١) وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦٢) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٣) وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٤)

[١٦١] {وقطّعناهم} أي فرّقنا بني إسرائيل تفريقاً قبلياً {اثنتي عشرة أسباطاً} كل فرقة منهم قبيلة تنتهي إلى سبط من أسباط يعقوب (عليه السلام) فقد كان له اثني عشر ولداً، كل ولد ولّد قبيلة {أمماً} بيان لاثنتي عشرة أسباطاً، فكل جماعة منهم أمة. وهذا من نعم الله سبحانه على بني إسرائيل لأن القبائل المتعددة تمشي أمورها بيسر بخلاف ما لو كان الجميع قبيلة واحدة، فإن الرؤساء إذا تعددوا تنافسوا في المكارم، وسهل مراجعة المرؤوسين إليهم، كما قال سبحانه: (وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا)(٢٦).

{وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه} أي طلبوا منه السقيا، وأن يسقيهم ماءً، وذلك حينما كانوا في التيه {أن اضرب بعصاك الحجر} وهو حجر كان معه فإذا أرادوا الماء وضعوه، وضربه موسى بعصاه التي كانت تنقلب ثعباناً متى ما أراد {فانبجست} أي انفجرت. ولعل الفرق بينهما أن الانبجاس خروج الماء بقلّة، والانفجار خروجه بكثرة. وفي بعض التفاسير: إن الماء كان يخرج من الحجر أولاً بقلّة ثم بكثرة.

{منه} أي من الحجر {اثنتا عشرة عيناً} لكل سبط عين، حتى لايزاحم بعضهم بعضاً في الشرب {قد علم كل أناس} من الأسباط {مشربهم} أي محل شربهم وأخذ الماء منه {وظلّلنا عليهم الغمام} حيث كان يؤذيهم حرّ الشمس فتأتي سحابة تظللهم ليستريحوا تحت ظلها {وأنزلنا عليهم المنّ} هو شيء حلو كالسكر {والسلوى} هو الطير السماني. كما تقدم ذلك في سورة البقرة. {كلوا} يا بني إسرائيل {من طيبات ما رزقناكم} واتركوا خبائثه {وما ظلمونا} إذ كفروا وعصوا، فإن الله لا يضره كفر الكافر وعصيان العاصي {ولكن كانوا أنفسهم يظلمون} حيث حرموها من خير الدنيا وسعادة الآخرة.

(٢٦) سورة الحجرات: ١٤.

[١٦٢] {و} اذكر يا رسول الله {إذ قيل لهم} أي لبني إسرائيل، والقائل هو الله سبحانه على لسان نبيه موسى (عليه السلام): {اسكنوا هذه القرية} بيت المقدس أو أريحا {وكلوا منها حيث شئتم} من أنواع المآكل ومختلف المزارع والمواضع {وقولوا حطّة} إذ نطلب من الله سبحانه حطّ ذنوبنا {وادخلوا الباب} أي باب القرية {سجّداً} جمع «ساجد»، أي: في حال السجود، بمعنى أنه إذا وصلتم إلى الباب اسجدوا وادخلوا {نغفر لكم خطيئاتكم} متعلق بقوله: «قولوا حطة» أي إن قلتم وسجدتم نغفر لكم و {سنزيد المحسنين} على غفران الخطايا بالتفضّل والتكرّم. وبين سياق هذه الآية، وما تقدم في سورة البقرة خلاف جزئي، وذلك من فنون البلاغة، وأوجه الإعجاز.

[١٦٣] {فبدّل الذين ظلموا منهم} أي غيّر العاصون الذين لم يدخل الإيمان قلوبهم {قولاً غير الذي قيل لهم} فبدلاً من أن يقولوا: «حطةٌ» قالوا: «حنطة حمراء خير لنا» {فأرسلنا عليهم رجزاً} أي عذاباً {من السماء} من جهة العلو {بما كانوا يظلمون} أي بسبب ظلمهم.

[١٦٤] {واسألهم} أي اسأل يا رسول الله اليهود، لأجل تذكيرهم بما كانوا يفعلون من المعصية فابتلوا بعذاب الله، حتى لا يتكرّر منهم ذلك {عن القرية التي كانت حاضرة البحر} أي مجاورة للبحر وقريبة منه، من «حضر» ضد «غاب». وقد ذكر بعض المفسرين أنها كانت «إيلة». {إذ يعْدُون} من التعدّي أي يتجاوزون حدود الله {في} أمر يوم {السبت} فقد حُرّم عليهم صيد الأسماك في هذا اليوم ـ اختباراً ـ وحُلّل عليهم في سائر الأيام، وقد كانوا يتوصلون إلى حيلة ليحلوا بها ما حرم الله، فحفروا أخاديد تؤدي إلى حياض يتهيأ للحيتان الدخول فيها من تلك الأخاديد ولا يتهيأ لها الخروج، فإذا كان يوم السبت جاءت الحيتان جارية على أمان لها فدخلت الأخاديد وأصبحت في الحياض والغدران، فلما كانت عشية اليوم همّت بالرجوع منها إلى اللجج لتأمن من صائدها، فلم تقدر فبقيت ليلها في مكان يتهيأ أخذها بلا اصطياد، وكانوا يأخذونها يوم الأحد ويقولون ما اصطدنا في السبت إنما اصطدنا في الأحد، ولكن كانوا كاذبين في ذلك، فإنهم قد أخذوها يوم السبت وإنما القبض كان يوم الأحد {إذ تأتيهم حيتانهم} جمع «حوت»، والعرب تسمي السمك حوتاً ونوناً {يوم سبتهم شرعاً} أي ظاهرةً على وجه الماء، من «الشرّع» بمعنى الظهور، جمع «شارع»، كـ«كتّب جمع كاتب»، وإنما كانت تأتي في هذا اليوم لما علمت من كونها آمنة لا تؤخذ، ولِما كان من عادة الحيوان أن يألف محل الأمان {ويوم لا يسبتون} أي لا يكون السبت، والتعبير بذلك، لأنهم كانوا يعتدون في السبت {لا تأتيهم} لما عرفتْ من عدم أمنها، ولعل الأمر كان خارقاً للامتحان، أو لعلة أخرى لانعرفها {كذلك} أي بمثل ذلك الاختبار الشديد {نبلوهم} أي نختبرهم {بما كانوا يفسقون} أي بسبب فسقهم وعصيانهم، فإنه إنما حرّم عليهم الاصطياد في السبت، أو إنما كان تظهر يوم السبت دون غيره، بسبب فسقهم ليشتد الامتحان عليهم.

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٦) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٧) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٨) وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَماً مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٩) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لاَ يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (١٧٠) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧١)

[١٦٥] وقد انقسم بنو إسرائيل أمام هذا العمل إلى ثلاثة فرق أحدها: الصائدة، الثانية: الساكتة، الثالثة: الناهية عن ذلك {وإذ قالت أمة} أي جماعة {منهم} أي من بني إسرائيل، وهي الساكتة، قالوا للفرقة الثالثة الناهية عن المنكر: {لم تعظون قوماً الله مهلكهم} أي أية فائدة في وعظكم، فإن هؤلاء لا يرتدعون حتى يعذبهم الله {أو معذبهم عذاباً شديداً} دون الهلاك {قالوا} أي قال الواعظون في جواب المعترضين: {معذرةً إلى ربكم} أي أن موعظتنا لأجل أن يكون لنا عذر عند الله سبحانه، فنقول له يوم القيامة: «يا رب إنا نهيناهم فلم ينتهوا»، حتى لايقول لنا سبحانه: لماذا لم تنهوا عن المنكر؟ {ولعلهم} بالوعظ {يتقون} ويرجعون عن غيّهم وعملهم المحرم، فإن الإنسان لا يدري من يبقى إلى الأخير في عصيانه ومن يرجع عن طغيانه.

[١٦٦] {فلما نسوا} أي نسي العاصون {ما ذكروا به} ما ذكّرهم به الواعظون، بأن فعلوا فعل الناسي، فلم يبالوا بالنهي، بل استمروا على عادتهم في الاصطياد يوم السبت بتلك الحيلة {أنجينا الذين ينهون عن السوء} وهم الواعظون {وأخذنا الذين ظلموا} وهم الصائدون والساكتون، فإن السكوت عن المنكر ظلم يرجع إلى الإنسان وباله {بعذاب بئيس} هو «فعيل» من «بئس»، بمعنى الشديد البأس، أي: بعذاب شديد {بما كانوا يفسقون} أي بسبب فسقهم.

[١٦٧] {فلما} رأينا أنه لم يفدهم الوعظ ولا العذاب الشديد الذي عذبناهم به ـ لعلهم يرجعون عن غيهم ـ و {عتوا} أي تكبّروا {عن ما نهوا عنه} أي عن قبول الوعظ {قلنا} والمراد بالقول هنا التكوين: {لهم كونوا قردة خاسئين} أي مسخناهم قروداً، ومعنى «خسأ» ابتعد عن الخير.

ورد أن الواعظين خرجوا من المدينة مخافة أن يصيبهم البلاء، فنزلوا قريباً منها، فلما أصبحوا غدوا لينظروا ما حال أهل المعصية، فأتوا باب المدينة فإذا هو مصمت، فدقوه فلم يجابوا ولم يسمعوا منها حس لأحد، فوضعوا سلماً على سور المدينة ثم أصعدوا رجلاً منهم فأشرف على المدينة فنظر فإذا هو بالقوم قردة يتعاوون، لها أذناب، فكسروا الباب ودخلوا المدينة، قال الراوي: فعرفت القردة أنسابها من الإنس، ولم يعرف الإنس أنسابهم من القردة فقال القوم للقردة: ألم ننهكم؟

[١٦٨] {و} اذكر يا رسول الله {إذ تأذّن ربك} أي أعلم ربك، فإن «تأذن وأذن» بمعنى واحد {ليبعثن عليهم} أي يرسلن على اليهود {إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب} أي من يُذيقهم العذاب الشديد. وقد دل التاريخ على أن اليهود كانوا أذلاء مضطهدين، وما تاريخ «هتلر» منّا ببعيد، وما يُرى أحياناً من دولتهم فهي مليئة بالقلق والرعب حتى تأتيهم القاضية.

ثم أن إرساله سبحانه العذاب إنما هو بسبب عمل كل جيل جيل، لالأعمال آبائهم {إن ربك} يا رسول الله {لسريع العقاب} فإن العقاب اللاحق سريع وإن أمهل الله الظالم أياماً.

روي أنه سئل الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) عن القريب والأقرب؟ فقال: «كل آت قريب والموت أقرب» ولعله يريد (عليه السلام) أن «الآتي» يحتمل فوته، بخلاف الموت.

{وإنه لغفور رحيم} فلا يأس للعاصي أنه إذا تاب وعمل صالحاً غفر الله له ما أذنب ورحمه.

[١٦٩] {وقطّعناهم} أي فرّقنا اليهود في البلاد فرقاً مختلفة {في الأرض أمماً} في كلّ مكان واتجاه، وذلك إذلالاً لهم، فإن الاجتماع والوحدة يوجبان العزة والسعادة {منهم الصالحون} هم الذين إذا رأوا الحق آمنوا به كعبد الله بن أبي وغيره {ومنهم دون ذلك} أي دون الصلاح يعني المفسدون {وبلوناهم} أي اختبرناهم {بالحسنات} تارة {والسيئات} أخرى، أي بالنعم والنقم {لعلهم يرجعون} أي لكي يرجعوا، فإذا جاءتهم الحسنات شكروا، وإذا أتتهم السيئات استغفروا، فإن كلاً من النعمة والبلاء، رحمة من جهة التذكير والإيقاظ.

[١٧٠] أولئك اليهود الذين كان منهم الصالحون ومنهم دون ذلك، ذهبوا وماتوا {فخلف من بعدهم خلف} قام مقامهم {ورثوا الكتاب} يعني التوراة، و«الميراث» هو ما صار للخلف من السلف، لكن هؤلاء غير صالحين. إن وجد فيهم صالح فهو نادر. {يأخذون عرض هذا الأدنى} أي ما وجدوه من الدنيا أخذوه بلا مراعاة للشريعة، وسمي «عرضاً» لأن الدنيا فانية فما فيها عارض زائل، وسمي «أدنى» لأنه أقرب إلى الإنسان من الآخرة {و} إذا قيل لهم بأن فيه الإثم {يقولون سيغفر لنا} ونتوب بعد ذلك {و} هم لا يستغفرون ولا يتوبون، بل يصرّون على تعاطي الحرام بدليل أنهم {إن يأتهم} بعد ذلك {عرض مثله يأخذوه} أيضاً.

ثم ينكر الله عليهم ذلك بقوله: {ألم يؤخذ عليهم} ولم يقل «منهم»، لإفادة أن الأخذ كان بإكراههم {ميثاق الكتاب} أي العهد الموجود في كتاب التوراة {أن لا يقولوا على الله إلا الحق} فلا

يحرّموا حلاله ولا يحلّلوا حرامه، فكيف يأخذون الرشوة وسائر المحرمات ويقولون أنها محللة عليهم؟ {ودرسوا ما فيه} أي قرأوا ما في الكتاب فهم عالمون بذلك، ولا مجال لهم أن يقولوا: ما كنا عالمين بالميثاق {والدار الآخرة خير للذين يتقون} أي أن الثواب الذي وعده الله خير من عرض هذه الدنيا الفانية، وهي وإن كانت خيراً لمطلق الناس إلاّ أن تخصيص «المتقين» بلحاظ انتفاعهم به فقط دونه غيرهم {أفلا تعقلون} أيها اليهود أن الأمر على ما أخبرنا به والاستفهام للإنكار.

[١٧١] {والذين يمسّكون} أي يتمسكون {بالكتاب} بأن عملوا بما فيه من الميثاق والأحكام {وأقاموا الصلاة} وتخصيصها بالذكر لأنها تنهى عن الفحشاء إذا أُتي بها على وجهها، فكأنها جعلت عَلَماً لسائر الأعمال {إنا} إلى آخر الجملة، خبر «والذين» {لا نضيع أجر المصلحين} الذين يُصلحون أنفسهم ويقومون بما يجب عليهم، فنثيبهم بما عملوا وأصلحوا.

وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١) وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤) وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨)

[١٧٢] {و} اذكر يا رسول الله {إذ نتقنا} «النتق» قلع الشيء من الأصل {الجبل} أي قلعناه، وجعلناه {فوقهم} أي فوق بني إسرائيل {كأنه} أي كأن الجبل {ظُلّة} أي غمامة، أو سقيفة ذات ظلّ. وقد كان الجبل كبيراً حتى أن في بعض التفاسير أنه كان فرسخاً في فرسخ {وظنوا} بأن رجح في نفوسهم {أنه واقع بهم} أي واقع عليهم، ولعل الإتيان بـ«الباء» لإفادة أن وقوعه عليهم يسبب وقوعهم أيضاً، وحينما رفع الجبل فوقهم قيل لهم: {خذوا ما آتيناكم} من الأحكام {بقوة} أي بشدة وجهد واجتهاد. وذلك أن موسى (عليه السلام) لما جاءهم بالتوراة لم يقبلوها فقطع جبرئيل (عليه السلام) قطعة من جبل الطور ورفعها فوق رؤوسهم، مهدداً أنهم إن لم يقبلوا ألقاها عليهم حتى يهلكوا عن آخرهم، ولما رأوا ذلك خافوا وقبلوا بكل كره وإجبار {واذكروا ما فيه} أي من العهود والمواثيق {لعلكم تتقون} أي لكي يحصل منكم التقوى، أو لكي تخافوا عقاب الله، فتتجنبوا المعاصي، فإن من بنى على العمل بالكتاب يشع في نفسه جوّ من الرهبة يبعثه على التقوى.

[١٧٣] وحين انتهت قصص موسى (عليه السلام) مع قومه يبدأ السياق ليفتح قصصاً جديدة حول التوحيد، وإذ انتهى من الكلام السابق حول أخذ الله الميثاق من بني إسرائيل، تأتي هنا قصة أخذ الله سبحانه الميثاق من البشر جميعاً حول الوحدانية. وفي الآية قولان:

الأول: ما روي أنه أخرج الله من ظهر آدم (عليه السلام) ذريته كالذّرّ يوم القيامة فخرجوا مثل الذر فعرّفهم نفسه وأراهم صنعه، ولولا ذلك لم يعرف أحد ربه فثبتت المعرفة ونسوا الموقف.

الثاني: إن الآية جارية مجرى الكلام العرفي البلاغي على طريقة التمثيل.

ومن المعلوم أن القول الأول لا مانع فيه إطلاقاً، فإن الله قادر على كل شيء {و} اذكر يا رسول الله {إذ اخذ ربك من بني آدم} أي أخرج من بني آدم {من ظهورهم} بدل من «من بني آدم» أي أخرج من أصلاب الرجال {ذريتهم} أولادهم وذراريهم {و} بعدما أخرجهم وأكملهم {أشهدهم على أنفسهم} أي جعلهم شهداء على أنفسهم، فإن من اعترف بشيء كان شهيداً على نفسه، قائلاً لهم: {ألست بربكم}؟ على نحو الاستفهام التقريري، وقد كان ذلك بلسان الأنبياء، كما في كثير من الآيات، مثل: (وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ)(٢٧)، والمراد: القول لهم على لسان موسى (عليه السلام) {قالوا بلى} أنت ربنا. وهذا اعتراف بالفطرة، فإن الفطرة أذعنت بذلك، كما قال الرسول (صلى الله عليه وآله): «كل مولود يولد على الفطرة إلا أن أبويه هما اللذان يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» ومن قبيل ذلك (إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا)(٢٨)، و(فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ)(٢٩)، و(إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)(٣٠)، وأشباه ذلك مما هو كثير في القرآن، وهو نوع من البلاغة، كقول الشاعر: «أيا جبلي نعمان بالله خليا»، وقوله: «أيا شجر الخابور ما لك مورقاً» وقوله:

قال الحبيب وكيف لي بجوابكم وأنا رهين جنادل وتراب

فإن الغالب أن يصوغ البليغ الكلام في قالب جذاب لبيان المراد.

{شهدنا} فالغرض من الآية أن الفطرة تشهد على توحيد الله سبحانه بما أودع فيها من درك الحقيقة وفهم الواقع. وإنما أودعنا في الفطرة هذه الشهادة لـ {أن} لا {تقولوا} أيها البشر {يوم القيامة} حين يُعاتب المشرك على شركه، والجاحد على جحوده: {إنا كنّا عن هذا} الأمر وهو التوحيد {غافلين} فقد أودعنا فيكم ما يزيل غفلتكم.

لا يقال: فعل هذا يلزم صحة العقاب حتى بالنسبة إلى من لم تبلغه الدعوة؟

لأنه يقال: هو كذلك، إلاّ أن الله سبحانه بلطفه لا يعذب حتى يُتمّ الحجة الظاهرة، كما قال سبحانه: (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً)(٣١)، وهذا التفسير للآية الكريمة إنما هو القول الثاني الذي يأخذ بالظاهر مع غض النظر عن أخبار «عالم الذر» والذي أظن أنه لامانع من الجمع بين الأمرين ودلالة الآية عليهما، فإنه لم يدل دليل على امتناع استعمال اللفظ في أكثر من معنى، بل الذي يظهر في بعض الروايات أن بعض الآيات القرآنية تدل على أكثر من معنيين سواء كان المعنيان من باب المصداق

(٢٧) سورة الإسراء: ١٠٥.

(٢٨) سورة الأحزاب: ٧٣.

(٢٩) سورة فصلت: ١٢.

(٣٠) سورة النحل: ٤١.

(٣١) سورة الإسراء: ١٦.

أو لا، كما أن في الآيات السابقة «إِنَّا عَرَضْنَا..» يمكن الأمران، وكان الظاهر اللفظي البلاغي يؤكد كون الألفاظ مسوقة للمعنى العرفي، لا الخارجي. والله أعلم..

[١٧٤] {أو تقولوا} أي: لئلاّ تقولوا: {إنما أشرك آباؤنا من قبل} شركنا {وكنا ذرية من بعدهم} فلم نكن نعرف الحق من الباطل، فقلدنا آباءنا باعتقاد أنهم أعقل منا وأدرى، فلا بد وأن يكون شركهم على علم ودراية فلا تقصير لنا {أفتهلكنا} يا رب {بما} لا جرم لنا فيه، فإنا قد اتّبعنا ما {فعل} آباؤنا {المبطلون} أي الذين هم على الباطل؟ فإنا قد جعلنا فيكم هذه الفطرة لتكون حاكمة وشاهدة على بطلان فعل الآباء، فلا يكون للمشرك عذر يوم القيامة بأنه لم يدر.

وهنا سؤال: إن الفطرة سواء جعلت في الإنسان أم لم تجعل، لم يصح احتجاج المشرك، إذ لولا الأنبياء لم يعذب المشرك، ومع وجود الأنبياء يكون احتجاج الله على المشرك بأنه لِمَ لمْ يؤمن بالنبي، لا لِمَ لمْ يسمع نداء فطرته؟ فكيف يُعلّل العقاب بجعل الفطرة؟

والجواب: إنه تعليل بجزء العلة، فإنه لولا الفطرة لم يكن الإنسان عارفاً بصحة كلام الأنبياء، إذ ما لم يدل الباطل على شيء لايؤخذ الإنسان بما قام عليه الدليل، ولذا ورد أن لله حجتين: ظاهرة هي الأنبياء، وباطنة هي العقول. وعليه فالتعليل إنما هو بجزء العلة، كما يقول القائل: «هيأت لك داراً لتسعد»، مع العلم أن الدار بعض من علة السعادة لا كلها.

[١٧٥] {و} كما بيّنا لكم هذه الآية الدالة على التوحيد {كذلك نفصل} سائر {الآيات} والبراهين ونوضحها جليةً، ليعرفها كل أحد {ولعلهم يرجعون} أي لكي يرجعوا عن غيّهم إلى الحق والرشاد. والظاهر أن «الواو» في «ولعلهم» عطف على المعنى المستفاد من «نفصّل» أي «ليعرفونها» و«لكي يرجعوا».

[١٧٦] إنا جعلنا هذه الفطرة في الإنسان ليكون انحراف المشرك بلا عذر، ويكون انحراف من انحرف بلا مبرر، وقد وقع مثل هذا الانحراف في بعض الأفراد وهو «بلعم بن باعورا» فقد أُعطي «الاسم الأعظم» الذي يستجاب به الدعاء، وكان يدعو به فيستجيب الله سبحانه له، فمال إلى فرعون، فلما مرّ فرعون في طلب موسى (عليه السلام) وأصحابه، قال فرعون لبلعم: ادعُ الله على موسى وأصحابه ليحبسه الله علينا، فركب بلعم حمارته ليمرّ في طلب موسى، فامتنعت عليه حمارته، فأقبل يضربها، فأنطقها الله عز وجل، فقالت: ويلك على ماذا تضربني، أتريد أن أجيء معك لتدعو على نبي الله وقوم مؤمنين، فلم يزل يضربها حتى قتلها وانسلخ الاسم الأعظم من لسانه فنسيه. والآية وإن كانت في شأنه إلا أنها عامة لكل من انسلخ من آيات الله لترجيحه هوى نفسه، كما هو شأن الآيات القرآنية.

{واتل} أي اقرأ يا رسول الله {عليهم} أي على الناس {نبأ} أي خبر {الذي آتيناه} أي أعطيناه {آياتنا} أي حججنا ودلائلنا. وقد تقدم أن المراد من ذلك الاسم الأعظم. {فانسلخ منها} أي خرج من تلك الآيات، كالشيء الذي ينسلخ من جلده، كأن الآيات كانت كالجلد الواقي له عن

شرور الدنيا والآخرة فأخرج نفسه منها، فتعرض للخطر والهلاك {فأتبعه الشيطان} أي لما خرج عن الوقاية تبعه الشيطان ليضلّه عن طريقه {فكان من الغاوين} أي الهالكين.

[١٧٧] {ولو شئنا} أي اقتضت مشيئتنا أن نجبره على البقاء {لرفعناه} أي رفعنا «بلعم» {بها} أي بتلك الآيات، فلو أردنا أن يبقى بالجبر لأمكننا ذلك، حتى ترتفع درجته {ولكنه} أي «بلعم» والضمير يرجع إلى «الذي آتيناه» كذلك الضمير السابق {أخلد إلى الأرض} فركن إلى الدنيا ومال إليها، كأنه جعلها موضع خلده وإقامته وأعرض عن الدار الآخرة، أو «أخلد» بمعنى لصق {واتبع هواه} عوض أن يتبع الحق ويسير في طريق الرشد {فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه} من «الحملة» أي إن تطرده {يلهث} يخرج لسانه من فمه يتنفس {أو تتركه يلهث} بأن تركته فلم تتعرض له، فإن كل حيوان يلهث في حال الإعياء والإكلال بخلاف الكلب فإنه يلهث في حال الراحة والإعياء.

والمراد أنه ضال على كل حال سواء عارضته أم لم تعارضه، بخلاف كثير من الناس الذين يضلون لدى المعارضة وحينما يغضبون أو يرون أن مصالحهم مهددة. إن بلعم أخرج لسانه ليدعو على موسى . شبيها بلهث الكلب . حينما لم يعارضه موسى (عليه السلام) ولم يهدد مصالحه، بل كانت أموره أحسن تحت لواء موسى حيث يجمعهما الدين، لكنه شبيه بالكلب اللاهث وإن لم تطرده.

{ذلك} المثال بالكلب {مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا} فإنهم بصفة الكلب في الإيذاء واللهث وإن لم يُتعرض لهم بسوء {فاقصص} يا رسول الله {القصص} أي أخبار الماضيين {لعلهم يتفكرون} فيرتدعوا عن غيهم، إذ يعلمون أن مصيرهم كمصير أولئك إلى الهلاك والدمار، إن عاندوا الحق وعارضوا الدين.

[١٧٨] {ساء مثلاً} أي بئس مثلاً مثل {القوم الذين كذبوا بآياتنا} والمراد: بئس الصفة المضروب لها المثل بصفة المكذبين، فإن سوء المثل يدل على سوء الممثل له {وأنفسهم كانوا يظلمون} أي أنهم بالعصيان ظلموا أنفسهم حيث حرموها من خير الدنيا وسعادة الآخرة.

[١٧٩] {من يهد الله} أي: يهديه الله سبحانه {فهو المهتدي} فإن هداية الله هي الهداية الحقة التي تورث خير الدنيا والآخرة {ومن يضلل} أي يُضله، بأن يقطع لطفه عنه حيث يراه في سبيل العصيان والفساد {فأولئك هم الخاسرون} الذين خسروا أنفسهم وما ربحوا شيئاً.

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٨٠) وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨١) وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨٢) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ (١٨٣) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٤) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ (١٨٥) أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٦) مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٧) يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (١٨٨)

[١٨٠] {ولقد ذرأنا} أي خلقنا وأنشأنا {لجهنم} اللام للعاقبة، كما في قوله تعالى: (فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً)[٣٢]، {كثيراً من الجن والإنس} فإنه سبحانه خلقهم ليعبدوه ويدخلوا جنته كما قال: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ)[٣٣]، وقال: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ)[٣٤]، لكنهم بسوء أعمالهم أوجبوا لأنفسهم الشقاء ودخول النار. والكلام تعقيب لما تقدم في الآية السابقة من ضرب الأمثال للكفار، فكأنه قال: «مثلهم ذلك، ومصيرهم هذا». ثم إنه يدل على أن مصير «فلان» النار بهذه العلائم فـ {لهم قلوب لا يفقهون بها} أي لا يفهمون الحق بسببها، والمراد عدم إذعانهم للحق، لأن التارك والجاهل سواء، فقد قال سبحانه: (يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا)[٣٥]، {ولهم أعين لا يبصرون بها} الرشد، وإن رأوا بها الأمور المادية، فإن التارك للطريق والأعمى سواء {ولهم آذان لا يسمعون بها} الوعظ والإنذار سماعاً مفيداً، وإن سمعوا ألفاظهما، فإن من لا يستجيب للوعظ هو والأصم سواء.

{أولئك} الأشخاص {كالأنعام} من الإبل والبقر والغنم، فكما أنها لا تفقه ولا تبصر الرشد، ولا تسمع إلى الوعظ كذلك هؤلاء {بل هم أضل} من البهائم لأنها تهتدي إلى مصالحها ومفاسدها وتنبعث إذا بعثت وتنزجر إذا زجرت، بخلاف هؤلاء فإنهم يلقون بأيديهم إلى التهلكة ولا ينصاعون

---

(٣٢) سورة القصص: ٩.

(٣٣) سورة الذاريات: ٥٧.

(٣٤) سورة النساء: ٦٥.

(٣٥) سورة النحل: ٨٤.

للأوامر والزواجر {أولئك} الضالين {هم الغافلون} عن الحق والواقع، فإنهم كالغافل في عدم الانتفاع بالأوامر والنواهي، وليست الأنعام غافلة، فهم أسوأ من الأنعام.

[١٨١] وحيث ذكر سبحانه مصير الكافرين وأنهم الذين لا يعقلون ولا يهتدون، بيّن ما يجب أن يكون عليه أهل القلوب الفاقهة من العقلاء فقال: {ولله الأسماء الحسنى} أي الحسنة المعنى كالكريم والغفور والجواد والرحيم والعفوّ وغيرها {فادعوه بها} أي فادعوا الله بهذه الأسماء بأن يقال: يا كريم يا غفور وهكذا {وذروا} أي اتركوا {الذين يلحدون في أسمائه} أي ينحرفون فيها بتسمية أصنامهم بأسمائه سبحانه، فقد كانوا يقولون لشيء: هذا إله المطر، وهذا إله النبات، وهذا إله الأرض.. وهكذا، فكانوا يجعلون صفاته وأسمائه للأصنام أو الأوهام، أو المراد: يلحدون بأسمائه كما سموا صنماً بـ«اللات» مخفف «الله» وصنما بـ«العزى» مخفف «عزيز»، أو المراد: يلحدون بتسمية الله بأسماء لا تليق به كتسميته «أباً» و«زوجاً» وما أشبه ذلك. إنهم {سيجزون ما كانوا يعملون} في الدنيا بالشقاء وفي الآخرة بالنار.

[١٨٢] ثم بيّن سبحانه أن ليس كل الناس منحرفين في الشرك والظلم {وممن خلقنا} من البشر {أمة يهدون} الناس {بالحق} ويرشدونهم إليه {وبه} أي بالحق {يعدلون} أي يحكمون بالعدل لا يزيغون عن الحق ولا يميلون نحو الباطل.

[١٨٣] {والذين كذبوا بآياتنا} فلم يؤمنوا، بل بقوا على عنادهم، مصرّين على كفرهم {سنستدرجهم} «الاستدراج» هو تقريب شيء إلى المقصد درجة درجة، أي أن المكذبين نقرّبهم إلى العذاب والهلاك درجة فدرجة {من حيث لا يعلمون} أنهم آخذون في القرب من الهلاك، فإن المؤمن كلما زلت به قدم تذكّر واستغفر وابتعد بنفسه عن الهلكة، أما المكذب فإنه حيث لا يبالي بما عمل يتقرب إلى الهلاك شيئاً فشيئاً وهو لا يعلم ذلك.

[١٨٤] {وأملي لهم} «الإملاء» التأخير، أي: أمهلهم ولا أعاجلهم بالعقوبة فإنهم لا يفوتون الله سبحانه، والإمهال لهم موجب لكثرة عذابهم لازدياد معصيتهم {إن كيدي} «الكيد» هو معالجة الأشياء خفية، إن عملي للانتقام منهم {متين} مستحكم لا يفوته شيء.

[١٨٥] {أولم يتفكروا} أي هلاّ يتفكر المشركون فيما يقولونه ويرمون به النبي (صلى الله عليه وآله) من الجنون، فإنهم كانوا يقولون أنه (صلى الله عليه وآله) مجنون {ما بصاحبهم من جنة} وكيف يكون مجنوناً من يأتي بما يعجز عنه البشر، وكل أقواله وأعماله في غاية الصحة والدقة؟! {إن هو} أي ما هو {إلاّ نذير مبين} منذر للناس إن عملوا شيئاً يُعاقبوا عليه، فواضح كونه منذراً، وإنما ذكر «الإنذار» فقط لأنه في مقابل المشركين الذين كانوا يعملون السيئات.

[١٨٦] إنهم كيف لا يؤمنون والكون كله يدل على وجود الله سبحانه؟ ثم كيف لا يؤمنون ومن الجائز أن يموتوا عاجلاً فيبتلوا بالعقاب والعذاب؟! {أولم ينظروا} نظر اعتبار وتعقّل {في ملكوت السماوات والأرض} أي آثار الملك، فإن الأثر يدل على المؤثر حتى يعترفوا بالإله الخالق وبما يليق به من

الصفات {و} أولم يتفكروا وينظروا في {ما خلق الله من شيء} من أصناف خلقه فيعرف أنه خالق الأشياء جميعاً {وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم} حتى يعدوا للموت عُدّته ويحتاطوا لما بعد الموت حتى لايندموا ويخسروا، فإن مجرد احتمال ذلك كافٍ في أن يرتدع الإنسان، كما أشار إلى ذلك الإمام علي (عليه السلام) في الأبيات المنسوبة إليه:

قال المنجم والطبيب كلاهما لم يحشر الأموات، قلت: إليكما

إن كان قولكما فلست بخاسر أو كان قولي فالخسار عليكما

إنهم لم يؤمنوا بالقرآن الكريم الذي تكتنفه كل شواهد الصدق والحق {فبأي حديث} ومطلب وخبر {بعده} أي بعد القرآن {يؤمنون} أو بعد «محمد» (صلى الله عليه وآله) حيث تقدم قوله «ما بصاحبهم». وفي الكلام مجاز سواء عاد الضمير إلى القرآن؛ لأن ليس كل القرآن حديثاً وقصة وإنما فيه إنشاء، أو الرسول (صلى الله عليه وآله)؛ لأنه صاحب حديث.

[١٨٧] {من يضلل الله} بأن يخلي بينه وبين الضلال، لما سبق منه من الإعراض عن الحق {فلا هادي له} إذ الهداية منحصرة بالله سبحانه، فإذا لم تشع الهداية من قبله فلم يكن للإنسان هاد سواه {ويذرهم} أي يترك هؤلاء المعرضين الذين لا يتفكرون ولا ينظرون إلى الحق {في طغيانهم} وضلالهم، كأنهم طغوا عن الحق {يعمهون} أي يتحيّرون، فهم دائماً متردّدون بين الحق والباطل، حيث أن الضمير يناديهم لاتباع الحق، وشهواتهم تمنعهم. وقد تقدم أن العمى في العين، والعمه في القلب.

[١٨٨] ولما تقدم الوعيد بيوم القيامة، الذي يسمى بـ«الساعة»، سأل جماعة عن وقت القيامة {يسألونك} يا رسول الله {عن الساعة} أي القيامة {أيان مرساه} أي متى وقوعها، من «رسا الشيء يرسو» إذا ثبت. و«المرسى» بمعنى المثبت، أي متى وقت ثبوتها؟ {قل} يا رسول الله في جوابهم: {إنما علمها} أي علم الساعة {عند ربي} فهو وحده يعلم وقتها {لا يجليها} أي لا يكشفها. الظاهر أن المراد: لا يأتي بها {لوقتها} أي حين يكون وقتها {إلا هو} تعالى، فعلمها عنده، ووقتها عند إرادته، وإنما لم يكشف الله سبحانه عن وقتها لخلقه ليكون أدعى لهم إلى الطاعة واجتناب المعصية، فإن الإنسان إذا لم يعرف وقت البلاء يكون خائفاً دائماً، أما إذا عرف أخّر الطاعات وكان خوفه لقرب وقت الساعة.

ولا يقال: إن القيامة ليس مما يخاف منه الإنسان في الدنيا، إذ هي بعد القبر، فعلمها وعدمه سواء بالنسبة إلى الإنسان الحي، وإنما يصح هذا التعليل بالنسبة إلى الموت.

لأننا نقول: قيام القيامة بالنسبة إلى العاصين ـ وهم في القبر ـ من أكثر الأشياء خوفاً، كما ورد في الأحاديث.

{ثقلت} الساعة، أي وقوعها {في السماوات والأرض} فإن أهل السماوات والأرض يخافونها خوفاً عظيماً لشدتها وما فيها من المحاسبة والمجازاة {لا تأتيكم} أيها البشر، أيها الشاعرون {إلاّ بغتة}

أي فُجأة {يسألونك كأنك حفي عنها} أي أن الناس يسألونك يا رسول الله عن الساعة وعن وقت قيامتها، كأنك عالم بها، فإن «الحفي» بمعنى المستقصي في السؤال، ويقال للعالم النحرير: «حفي» باعتبار أنه من كثرة سؤاله استوعب الأمر تماماً وعلم الواقع كما هو، فالمعنى: «كأنك عالم بالقيامة قد أكثرت المساءلة عنها» {قل} يا رسول الله في جواب السائلين: {إنما علمها} أي علم الساعة {عند الله} كرّر هذا ليصل بقوله: {ولكن أكثر الناس لا يعلمون} إن علمها خاص بالله لا يشترك معه في هذا العلم أحد.

قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٩) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٩٠) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩١) أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩٢) وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلاَ أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٣) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (١٩٤) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٩٥) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنْظِرُونِ (١٩٦)

[١٨٩] إن الساعة غيب لا يعلمه إلا الله، وكذلك سائر الأمور الغائبة عن الحواس، وإن كنت أنا ـ الرسول ـ أعلم الغيب بذاتي، لكنت أعلم ما يضرّني فاجتنبه وما ينفعني فارتكبه {قل} يا رسول الله لهؤلاء السائلين: {لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً} فإنني لا أقدر على جلب نفع ولا دفع ضرر {إلا ما شاء الله} فما شاء أن يملكني إياه؛ أتمكن منه، وما لم يملكني إياه؛ لا أتمكن منه، وهذا كما ملّك سبحانه الرسول بعض المنافع ودفع عنه بعض المضارّ، نعم الرسول أكثر ملكاً حيث أنه مزوّد بقسم من الحصانة وعلم الغيب {ولو كنت أعلم الغيب} علماً مطلقاً كما يعلمه الله سبحانه، فإن الرسول لم يكن يعلم الغيب بذاته، وإنما بمقدار علم الله سبحانه، كما قال سبحانه: (لاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ)(٣٦)، {لاستكثرت من الخير} أي أكثر من الأشياء الخيرة كالشراء الرخيص أيام الرخص لأيام الغلاء، وغيره مما لو عرفه الإنسان لانتفع به كثيراً {وما مسّني السوء} الذي يمكن دفعه، فإن الإنسان إذا عرف أن هذا الغذاء يضره أو هذا الشخص يقتله، أو هذا السفر يؤذيه ـ مثلاً ـ لأجتنبها.

ومن الغريب أن بعض الناس يتمسكون بمثل هذه الآية لعدم معرفة الرسول بالأشياء المستقبلية إطلاقاً، إنه ليس إلا كتمسك المجبرة بقوله سبحانه: (مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ)(٣٧)، والمجسمة بقوله: (يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ)(٣٨)، والقدرية بقوله: (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)(٣٩)، والقائلين بحجية التوراة

---

(٣٦) سورة الجن: ٢٧ و٢٨.

(٣٧) سورة الأعراف: ١٨٧.

(٣٨) سورة القلم: ٤٣.

(٣٩) سورة القمر: ٥٠.

والإنجيل بقوله: (إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً)[٤٠]، (وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ)[٤١]، والقائلين بمعصية الأنبياء بقوله: (وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى)[٤٢]، والقائل بجهل الله سبحانه وتعالى بقوله: (قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ)[٤٣]، والقائل بتعدد الآلهة بقوله: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا)[٤٤]، حيث دلل على أن الآلهة مع الله لا توجب الفساد. وهكذا من أمثال هذه الاستدلالات التي إن دلت على شيء فإنما تدل على عدم اطلاع القائل بأساليب الكلام، وعدم جمعه بين النص والظاهر، والعام والخاص، والمطلق والمقيد، والحقيقة والمجاز، ومُعارض السياق.

{إن أنا} أي ما أنا {إلا نذير} أنذر الكافر والعاصي بالعقاب {وبشير} أبشر المؤمن المطيع بالثواب {لقوم يؤمنون} اللام للعاقبة، أي أن فائدة إنذاري وبشارتي إنما هي للمؤمن، أما غيره فالرسول بشير نذير له، لكنه حيث لا ينتفع بقوله، فكأنه ليس مرسلاً بالنسبة إليه.

وقد ورد في بعض التفاسير أن أهل مكة قالوا: يا محمد! ألا يخبرك ربك بالسعر الرخيص قبل أن يغلو فتشتريه فتربح فيه، وبالأرض التي تريد أن تجدب فنرتحل منها إلى أرض قد أخصبت، فأنزل الله هذه الآية.

[١٩٠] وحيث انتهى السياق من قصة المعاد، ونُبذ من يوم البعث، يأتي دور قصة أخرى من قصص البشر الذي لا يزال ينحرف عن الفطرة ويتوجه نحو الشرك والكفر، كما تقدمت قصة «بلعم» بهذا الصدد {هو} الله وحده {الذي خلقكم من نفس واحدة} فابتداء الخلقة بآدم (عليه السلام) وحده {وجعل} أي خلق {منها} أي من جنس تلك النفس ونوعها وصورتها {زوجها} حواء (عليها السلام) {ليسكن} آدم (عليه السلام) المفهوم من قوله «نفس واحدة» {إليها} أي إلى الزوجة، فيستريح بها وتكون موضع سكونه واطمئنانه وراحته {فلما تغشّاها} أي قاربها، إذ الرجل حين المقاربة يكون كالغشاء والغطاء لها {حملت حملاً خفيفاً} هو الماء الذي يستقر في الرحم أول الأمر، وفي هذا الحين لا يحسّان بالحمل حتى يعلّقا عليه آمالاً، وينذرا لأجل الجنين نذوراً {فمرت به} أي استمرت بالحمل على الخفة {فلما أثقلت} أي صارت ذات ثقل، وتبيّن الحمل وظهر أثره في الزوجة {دعوا الله ربهما} أي دعا الزوج والزوجة، فإن الكلام حول الإنسان لا حول آدم وحواء (عليهما السلام)، فإنه سبحانه يريد بيان الطبيعة البشرية التي تستقيم في أول الأمر ثم تنحرف لنوازع ورغبات، والكلام في مثله حيث يبتدأ بجهة، ثم ينصرف لجهة أخرى، يسمى استخداماً، فإن اللفظ خدم معنى، والضمير معنى آخر

---

(٤٠) سورة المائدة: ٤٥.

(٤١) سورة المائدة: ٤٨.

(٤٢) سورة طه: ١٢٢.

(٤٣) سورة يونس: ١٩.

(٤٤) سورة الأنبياء: ٢٣.

كما قال: (وَالْمُطَلَّقَاتُ ـ إلى قوله ـ وَبُعُولَتُهُنَّ)[٤٥]، فإن الضمير يرجع إلى بعض المطلقات، وهنَّ الرجعيات فقط. {لئن آتيتنا صالحاً} أي ولداً صالحاً كاملاً صحيح الخلقة {لنكونن من الشاكرين} لك وحدك لا شريك لك، فنقدر فضلك ولطفك علينا، ونحمدك ونشكرك على ما أعطيتنا هذا الولد الصالح.

[١٩١] {فلما آتاهما} أي أعطى الله الأبوين ولداً {صالحاً جعلا} أي الأبوان {له} سبحانه {شركاء فيما آتاهما} في الشؤون المرتبطة بالولد، فتُشكر الأصنام كما يُشكر الله في إعطاء الولد، ويسميانه بعبد العزى وعبد اللات وعبد مناة، وأحياناً كانا ينذرانه للأصنام ذبحاً أو خدمة؛ كما يُنذر لخدمة المسجد ونحوه {فتعالى الله} أي أن الله أعلى وأجل {عما يشركون} أي يشرك البشر، إنه سبحانه ليس له شريك ولا مثيل.

[١٩٢] {أيشركون} استفهام توبيخي، أي كيف يشرك هؤلاء مع الله شريكاً {ما لا يخلق شيئاً} ؟ فإن الأصنام لا تتمكن من خلق شيء {وهم يُخلقون} أي أولئك الشركاء ـ كالأصنام ـ هي كلها مخلوقة، أو المراد أن الجميع من المشرك والأصنام مخلوقون.

[١٩٣] {ولا يستطيعون} أي لا تستطيع تلك الأصنام {لهم} أي لعُبّادها {نصراً} حيث يقعون في المشاكل {ولا أنفسهم ينصرون} لا تستطيع الأصنام نصر أنفسها إذا تعدّى عليها مُتعدٍّ، كما قد رأى ذلك الشاعر أن الثعلب يبول على رأس صنمه، فكسره قائلاً:

أربٌ يبول الثعلبان برأسه؟ لقد ذلّ من بالت عليه الثعالب

ولا يخفي أن الإتيان بضمير العاقل للأصنام للتشاكل بما كان يعتقده عابدوها من أنها تعقل وتفهم وتضر وتنفع.

[١٩٤] {وإن تدعوهم} أيها المسلمون إن تدعوا هؤلاء المشركين {إلى الهدى} ليهتدوا ويتركوا أصنامهم {لا يتّبعوكم} حيث استحوذ الشيطان عليهم {سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون} فإن دعاءهم إلى الإيمان والسكوت عنهم متساويان، كما قال سبحانه: (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ)[٤٦].

وقد يستشكل بعض الملحدين: بأن الأمر إن كان بالنسبة إلى مرحلة الظاهر فالله «سبحانه» والأصنام متساويان من هذه الجهة، فإنه لا يظهر أثر للنصرة وعدمها، وإن كان بالنسبة إلى مرحلة الواقع، فأي دليل على الفرق، وإن الأصنام تنصر في زعم عبادها كما أن الله ينصر في نظر المسلمين؟

والجواب: إن الأدلة لما دلّت على وجوده سبحانه كانت كافية للفرق في مرحلة الواقع، فلو كان هناك شخصان أحدهما يملك شهادة الطب، والآخر جاهل، ولم ينفع الدواء الذي وصفه صاحب

---

(٤٥) سورة البقرة: ٢٢٩.

(٤٦) سورة البقرة: ٧

شهادة الطب للمريض، لا يمكن أن يقال بالتساوي مع الجاهل، وإنما يجب أن يعلل بعلة أخرى، وإن شئت قلت: إن الدليل في قوله تعالى: «لايستطيعون لهم نصراً» خطاب في الظاهر، وإنما البرهان المقنع ما ذكرنا. وبهذا يجاب عن الإشكال بالنسبة إلى التوسل بالأنبياء والأولياء مما دلّ الدليل عليه.

[١٩٥] {إن الذين} أي الأصنام الذين {تدعون} هم {من دون الله} أي تجعلونهم آلهة {عباد} أي مخلوقة لله، فإن العبد هو المطيع. ومن المعلوم أن الجمادات تطيع الله تعالى، كما يطيعه الإنسان، كما قال سبحانه: (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)(٤٧)، {أمثالكم} أيها البشر فليسوا بآلهة حتى تعبدونهم.

{فادعوهم} في مهماتكم وكشف الضر عنكم {فليستجيبوا لكم} الأمر هنا للتعجيز والتوهين، كما تقول للعاجز عن القيام: «قم إن صدقت أنك قادر» {إن كنتم صادقين} في أنها آلهة تنفع وتضر.

ومن الوهابيين من يستدل بهذه الآية بعدم صحة التوسل بالأنبياء والأئمة، قائلاً: «فادعوهم فليستجيبوا لكم».

والجواب: نقضاً؛ «فادع الله فليستجب لك» فإن قال: يستجيب، قلنا: يستجيبون بأمر الله تعالى وإذنه. وحلاً؛ بأن الفارق هو الدليل، وعدم الاستجابة العاجلة لا دلالة فيه لأحد الطرفين.

[١٩٦] ثم بيّن سبحانه أن الأصنام لا تقدر على شيء حتى على ما يقدر الإنسان العادي عليه، فمن لا يقدر على أقل شيء كيف يكون إلهاً معبوداً؟ {ألهم أرجل يمشون بها} أي: هل لهذه الأصنام أرجل يمشون بها في مصالحكم، أو مشياً لأنفسهم، حتى يتساووا مع أقل حيوان أو إنسان؟ {أم لهم أيد يبطشون بها} «البطش» هو الأخذ بشدة، أي يأخذون بأيديهم بشدة ما يريدون الانتقام منه، أو مطلق الأخذ {أم لهم أعين يبصرون بها} الأشياء؟ {أم لهم آذان يسمعون بها} الأصوات والشكاوى وغيرهما؟ إنها لا تحس إطلاقاً، فكيف تعبدون أنتم أيها البشر هذه الأشياء الفاقدة لكل حس؟

{قل} يا رسول الله للمشركين: {ادعوا شركاءكم} أي الشركاء الذين جعلتموهم مع الله سبحانه {ثم كيدون} أي امكروا بي بأجمعكم عابداً ومعبوداً {فلا تنظرون} لا تأخروني، بل أسرعوا في الكيد، فإن ربي ينصرني عليكم جميعاً. إن الرسول (صلى الله عليه وآله) بهذا يتحدّاهم، لبيان أن الله ناصر نبيه، لكن أصنامكم لا تنصركم.

---

(٤٧) سورة الإسراء: ٤٥.

إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٧) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلاَ أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٨) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ (١٩٩) خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (٢٠٠) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠١) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠٢) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ (٢٠٣) وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٤) وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٥) وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٦) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠٧)

[١٩٧] {إن وليي} الذي يتولى أمري وينصرني {الله الذي نزل الكتاب} أي القرآن، فإنه كما أمرني بالرسالة ضمن لي النصرة {وهو يتولى الصالحين} يتولى أمورهم وينصرهم على أعدائهم، وهذا لا ينافي عدم الحيلولة بينهم وبين أعدائهم أحياناً لمصالح وجهات.

[١٩٨] {و} الأصنام {الذين تدعون} هم {من دونه} أي غير الله سبحانه من الآلهة {لا يستطيعون نصركم} لا يقدرون على أن ينصروكم {ولا أنفسهم ينصرون} فإذا تعدّى عليهم مُتعدٍّ لا يتمكنون من الدفاع عن أنفسهم.

[١٩٩] {وإن تدعوهم} إن تدعوا أيها المسلمون، المشركين {إلى الهدى} والحق {لا يسمعوا} دعاءكم فإنهم معاندون، وقيل: المعنى إن تدعوا الأصنام لا يسمعوا لأنهم جماد {وتراهم} يا رسول الله، أو كل من يتأتى منه الرؤية {ينظرون إليك} أي المشركون، أو الأصنام، فإن الأصنام عيونها مفتوحة إلى الإنسان كالناظر {وهم لا يبصرون} إبصاراً نافعاً؛ إذا كان وصفاً للمشركين، أو أصل الإبصار؛ إذا كان وصفاً للأصنام.

[٢٠٠] وحيث أن الإنسان إذا ورد في خضم الاحتجاج ورأى عناد الخصم على الباطل يأخذه الغضب الموجب للخروج عن آداب المحاورة، أوصى الله سبحانه نبيه بمكارم الأخلاق ـ بمناسبة المقام ـ فقال: {خذ العفو} عن الناس أي لازم العفو عنهم، وأصفح عن السيئ منهم، أو المراد خذ الزائد من أموالهم، أي ما عفا وفضل من نفقاتهم، فإن الخمس والزكاة والخراج والجزية كذلك ـ غالباً ـ والمعنى الأول أقرب إلى الظاهر، والمعنى الثاني وارد في الحديث، ولا يبعد إرادة الأمرين، فإن استعمال اللفظ في أكثر من معنى جائز إذا كان هناك دليل {وأمر بالعرف} أي ما يستحسنه العرف، وهو ما ليس بقبيح عند

العقل، وهو ضد النكر {وأعرض عن الجاهلين} فلا تقابل جهلهم بجهل. إن المتكلم مع طبقات الناس المختلفة يحتاج إلى التزام هذه الأشياء إن أراد مراعاة الآداب، فاللازم أولاً أن يعفو عمن يخشن في الكلام ويتنكب عن طريق الحق، ثم يأمره بالمعروف لعله يرجع ويسترشد، فإذا رأى منه جهلاً وإصراراً، فليعرض عنه ولا يقابله بمثل عمله.

[٢٠١] {وإما} مركبة من «إن» الشرطية و«ما» الزائدة تأتي لتجميل الكلام وفوائد أخر {ينزغنك} «النزغ» هو الإزعاج بالإغراء، وأكثر ما يكون ذلك عند الغضب، أي إن نالك {من الشيطان نزغ} وسوسة ونيل ونخسه في القلب، وحركة وإزعاج بأن ثار القلب أمام الجاهل وغضب واحتد، حتى أراد الانتقام والسباب {فاستعذ بالله} أي سل الله سبحانه أن يعيذك ويحفظك من شر الشيطان {إنه} سبحانه {سميع} لقولك {عليم} بقصدك وما عرض لك.

[٢٠٢] ثم بيّن سبحانه أن هذه قاعدة المؤمنين كلما ألقى الشيطان في قلوبهم ميلاً وزيغاً، أدركتهم الفطنة، فلم يميلوا إليه {إن الذين اتقوا} بأن جعلوا التقوى شعارهم، وذاقوا حلاوتها وصارت ملكة وعادة عندهم {إذا مسهم طائف من الشيطان} بأن أتاهم من يطوف من الشياطين على قلوب بني آدم، فأراد إغواءهم، وميلهم عن الحق، وأعمى قلوبهم، وزين في نفوسهم الشهوات. وقد دلت الأدلة الشرعية والعلمية[٤٨] على أن في الجو أرواح شريرة شأنها الإغراء والإغواء، ولا يراها الإنسان.

{تذكروا} وأدركتهم ملكة التقوى الكامنة في نفوسهم {فإذا هم مبصرون} يبصرون الطريق ولا يعمهون عن الحق، ولا يتمكن الشيطان من تغشية قلوبهم بغشاء الشهوات والمغريات.

[٢٠٣] هذا شأن المتقين الذين لا يسايرون الشياطين في إغوائهم وإغرائهم {و} أما {إخوانهم} أي إخوان الشياطين الذين لا تقوى لهم ليرتدعوا عن المعاصي والأثام فإنهم {يمدونهم} أي يمدون الشياطين ويسايرونهم {في الغي} والضلال، فإذا مس العاصي طائف من الشيطان عمل بما يوحي إليه، وكان ذلك إمداداً للشياطين، لأنه مشى في ركابهم، ومسايرةً لهم {ثم لا يقصرون} بل يذهبون إلى آخر الشوط، بخلاف المتقين الذين لا يمدون الشياطين ويقصّرون في المسايرة، ولعل جملة «ثم لا يقصرون» للإشارة إلى أن المتقي إذا غفل وأغري ومشى بعض الطريق مع الشيطان أدركته بصيرته فرجع ولا يسير إلى آخر الشوط، بخلاف إخوان الشياطين.

[٢٠٤] وفي سياق الكلام حول أدب الحوار مع الناس، وأن المتقي متأدب بالآداب يأتي دور المحاورة بين الرسول والكفار حول القرآن كشاهد لأدب الرسول (صلى الله عليه وآله)، وكون الكفار إخوان الشياطين الذين يمدونهم في الغي {وإذا لم تأتهم} يا رسول الله {بآية} أي بمعجزة يقترحونها عليك، فإن الكفار كانوا يقترحون على الرسول الأمور الخارقة للعادة لمجرد المجادلة والمعاندة، لا لإرادة

---

(٤٨) المس الروحي/ عبد الرزاق نوفل.

الاهتداء والاسترشاد، فإذا لم يستجب الرسول لمطلبهم {قالوا} أي الكفار: {لولا اجتبيتها} أي لماذا لم تختر هذه الآية المقترحة؟ ولماذا لم تأت بها؟ كأنهم، يرون الرسول (صلى الله عليه وآله) الفاعل لما يشاء، فمهما اجتبى آية واختارها، أتى بها {قل} يا رسول الله: إن الآيات ليست باختياري واجتبائي، بل {إنما أتبع ما يوحى إليّ من ربّي} فاللازم اختيار الله للآيات، فما رآها صلاحاً أرسلها وزودني بها، وما لم يرها صلاحاً لم يرسلها، إن كنتم تريدون الحق والهدى . حقيقة . وقصدكم من طلب الآيات، إقامة الدليل والحجة على صدقي ف {هذا} الذي جئت به من القرآن المعجز الذي لم تتمكنوا أن تأتوا بمثله {بصائر} وحجج وبراهين {من} قِبَلِ {ربكم وهدى} يهدي من أراد الحق إلى الحق {ورحمة} يوجب ترحّم الله سبحانه ولطفه بالعاملين به {لقوم يؤمنون} اللام للعاقبة، إذ المنتفع بهذه الآيات هم المتقون فقط.

[٢٠٥] وإذ تقدم ذكر القرآن تلميحاً بقوله «هذا بصائر» بيّن سبحانه لزوم الأدب أمام القرآن بقوله: {وإذا قرئ القرآن} أي قارئ كان {فاستمعوا له} أي أعيروا أسماعكم له {وأنصتوا} «الإنصات» هو السكوت. ومن المعلوم أن الإنصات أخص من الاستماع، فإن الإنسان ربما يستمع إلى الكلام وهو يتكلّم، ولذا نص عليه، فإن الأدب أن يستمع الإنسان، ولا يتكلّم، وهذا الأمر للاستحباب، ككثير من أوامر القرآن الكريم كقوله: (فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً)[٤٩]، كما دلّت على ذلك الأحاديث {لعلكم ترحمون} أي لكي يرحمكم الله سبحانه بسبب تأدبكم أمام كتابه الكريم، أو بسبب اتعاظكم بمواعظه، حيث تستمعون لها.

[٢٠٦] وبمناسبة الإنصات عند تلاوة القرآن، يأتي بيان كيفية دعوة الله سبحانه، فإن القرآن كلام الله للخلق، والدعاء كلام الخلق مع الله سبحانه {واذكر} يا رسول الله، أو كل من يأتي منه الذكر {ربك في نفسك} أما المراد به حديث النفس، وأما المراد التذكر بالهمس والإخفات، ولعل الأول أقرب، بقرينة ما يأتي بقوله: «ودون..» {تضرعاً} أي بنحو الضراعة والاستكانة {وخيفة} أي مع الخوف من الله تعالى، فإن ذلك أقرب إلى الإجابة {و} اذكره سبحانه {دون الجهر من القول} فإن الكلام المتوسط خير، وهذا لا ينافي استحباب الإجهار لدواعي أُخر، كما نزل جبرئيل على الرسول، وقال: «يأمرك ربك بالعج والثج»[٥٠] في باب التلبية وما ورد من أن الصلوات المجهر بها تُذهب بالنفاق، وما دل على الإتيان بالصلوات الثلاث جهرية، إلى غير ذلك، والقول بأن الله لا يحتاج إلى الإجهار تعليل تافه، فإنه يُنقض بأن الله لايحتاج إلى الكلام، فليكتف المستشكل بحديث النفس في قراءته ودعائه وأذكاره؟ {بالغدو} أي الصباح {والآصال} جمع «أُصُل»، وأُصُل جمع «أصيل»، فهو جمع الجمع،

---

(٤٩) سورة النور: ٣٤.

(٥٠) راجع بحار الأنوار: ج٩٦، ص٢٨٦.

ومعناه «العشيات»، وهو ما بين العصر إلى غروب الشمس، وهذا كناية عن دوام الذكر، والتفريق بين «الغدو والآصال» بالإفراد والجمع، تفنن بلاغي لا يخفى لطفه.

{ولا تكن} يا رسول الله، أو المراد العموم، والمقصد العموم على أي حال، وإنما الكلام في مرجع الضمير {من الغافلين} الذين يغفلون عن ذكر الله سبحانه. وفي الآية الكريمة روايات كثيرة غالبها من باب بيان المصداق، فلا تضر بعمومها.

[٢٠٧] ثم بيّن سبحانه أن الملائكة الذين هم أبعد عن النزوات، وهم دائموا الذكر، فأجدر بالإنسان أن يكون متذكِّراً دائماً {إن الذين عند ربّك} أي الملائكة، والمراد بكونهم عنده سبحانه أنهم في قربه، قرب الجاه والمكانة، لا القرب المكاني {لا يستكبرون عن عبادته} ولا يترفعون بأنفسهم عن الخضوع والخشوع له سبحانه {ويسبحونه} أي ينزهونه عما لا يليق به، بذكر «سبحان الله» أو غيره {وله} تعالى {يسجدون} كسجودنا، أو المراد غاية الخضوع.

سورة الأنفال

مكية، مدنية/آياتها (٧٦)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١)
يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأنْفَالِ قُلِ الأنْفَالُ للهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَ
وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ
آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٤) أُولَئِكَ
هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥) كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقّ
وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٦) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ
يَنْظُرُونَ (٧) وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ
وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٨) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ
الْمُجْرِمُونَ (٩)

سورة الأنفال:

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على كلمة «الأنفال» وحكمها. والجو العام لهذه السورة حول السلم والحرب وشؤونهما، وحياة الرسول (صلى الله عليه وآله) وأصحابه، ومناوئيهم، وأمثلة من آل فرعون ومن كذّب بآيات الله سبحانه.

ولما كانت سورة الأعراف لبيان قصص الأنبياء، وثم ختمت بقصة الرسول (صلى الله عليه وآله)، افتتحت هذه السورة بذكره (صلى الله عليه وآله) وما جرى بينه وبين قومه، فقال سبحانه:

[١] {بسم الله الرحمن الرحيم} دليلاً على ابتداء هذه السورة، واختتام السورة السابقة.

[٢] {يسألونك} يا رسول الله {عن الأنفال} هو جمع «نفل» بمعنى الزيادة، والمراد هنا: الغنيمة، وإنما سميت نفلاً لأنها عطية وفضل من الله سبحانه للمسلمين، وقد اختلف التفسير حول الأنفال، والذي نعتقده بعد الجمع بين الآيات والروايات أن الأشياء التي ليست ملكاً لأحد وغنائم دار الحرب تنقسم إلى قسمين:

الأول: الغنائم؛ وهي تقسم إلى خمسة أقسام: قسم يسمى «الخمس» لله والرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل. والأربعة الباقية للمقاتلين.

الثاني: الأنفال؛ وهي ما سيأتي في الرواية، وتكون لله والرسول (صلى الله عليه وآله) والإمام، وقد أبيحت في حال الغيبة لمن يتولى الأئمة (عليهم السلام)، أو لمطلق من حازها مؤمناً كان أو غير مؤمن. وظاهر سياق الآية أن المراد بالأنفال هنا هي مطلق الغنائم، فإن السورة نزلت في وقعه بدر، ولما هزم المسلمون الكفار، انقسموا ثلاث فرق.

روى عبادة بن الصامت قال: خرجنا مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) فشهدت معه بدراً فهزم الله تعالى العدو فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون، وأقبلت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه وأحدقت طائفة برسول الله (صلى الله عليه وآله) لا يصيب العدو منه غرّة، حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها فليس لأحد فيها نصيب. وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق منا نحن منعنا عنه العدو وهزمناهم. وقال الذين أحدقوا برسول الله (صلى الله عليه وآله): خفنا أن يصيب العدو منه غرّة فاشتغلنا به. فنزلت الآية: «يسألونك عن الأنفال»؟ «قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم» فقسمها رسول الله (صلى الله عليه وآله) بين المسلمين.

وهذا الحديث يدل على أن المراد بالأنفال مطلق الغنائم، كما هو ظاهر السياق، وهناك حديث يفسر الأنفال بما يحضر الإمام بعد الرسول (صلى الله عليه وآله)، ولا منافاة بين الأمرين، فقد تكرر منا سابقا أن اللفظ المشترك يجوز استعماله في أكثر من معنى واحد إذا كانت هناك قرينة.

فعن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال: «الأنفال ما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب أو قوم صالحوا وأعطوا بيدهم»[٥١].

وفي حديث آخر عنه (عليه السلام): «الفيء والأنفال ما كان من أرض خربة أو بطون أودية أو أرض لم يكن فيها مهراقة دم أو صولحوا أو أعطوا بأيديهم ولم تفتح بالسيف فهو يكون من الفيء والأنفال، فهذه لله ورسوله فما كان لله فهو لرسوله يضعه حيث يشاء وهو للإمام بعد الرسول»[٥٢].

وفي حديث آخر عنه (عليه السلام): «الأنفال كل ما أخذ من دار الحرب بغير قتال، وكل أرض انجلى عنها أهلها بغير قتال والأرضون الموات والآجام وبطون الأودية وقطائع الملوك وميراث من لا وارث له فهو لله ولرسوله ولو من قام بنصه ومن مات وليس له مولى فماله من الأنفال»[٥٣].

وعلى هذا فتسمية هذا الشيء بالأنفال لزيادة الإمام بحصة دون سائر شركائه في الخمس.

{قل} يا رسول الله في جواب السائلين عن الأنفال: {الأنفال لله والرسول} ليس لأحد حتى يُتنازع فيها، وإذا كانت لله والرسول فلهما الخيار في أن يقسماها كيف شاءا {فاتقوا الله} خافوا عقابه

---

(٥١) الكافي: ج١، ص٥٣٩.

(٥٢) وسائل الشيعة: ج٩، ص٥٢٧.

(٥٣) بحار الأنوار: ج١٩، ص٢١٠.

في التنازع وطلب ما ليس لكم {وأصلحوا ذات بينكم} أي ما بينكم من الخصومة والمنازعة، وإنما يؤتى بكلمة «ذات» لتشبيه الصلة التي بين الناس بأمر مجسّم فيما بينهم، تشبيهاً للمعقول بالمحسوس {وأطيعوا الله ورسوله} في الغنائم وغيرها {إن كنتم مؤمنين} مصدقين للرسول فيما يأتيكم به من قبل الله سبحانه. قيل: إنه لما عرف المسلمين أنه لا حق لهم في الغنيمة وأنها لله والرسول، قالوا: يا رسول الله سمعاً وطاعة فاصنع ما شئت.

[٣] ثم ذكر سبحانه صفات المؤمنين الكاملين ليكون درساً للمسلمين في مستقبل حياتهم وليكون ميزاناً يزن المسلم نفسه فيه فقال: {إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم} أي اضطربت وخافت من عظمته، وإن لم يكن خوفاً من ذنب، فإن الإنسان إذا علم أنه سيحضر محضراً كبيراً وعظيماً ارتجف قلبه خوفاً من الفشل {وإذا تليت} أي قرأت {عليهم آياته زادتهم} الآيات {إيماناً} فإن الإيمان ملكة في القلب، كلما كُرّر المطلب على الإنسان زادت الملكة قوة وثباتاً {وعلى ربهم يتوكلون} في أمروهم، فيفوّضون أمورهم إليه، في كل مرجو ومخوف.

[٤] {الذين يقيمون الصلاة} بالإتيان بها مواظبين عليها، والحث عليها بالنسبة إلى سائر الناس، فإن الإقامة غير الإتيان {ومما رزقناهم ينفقون} سواء الواجب من الإنفاق أو غيره.

[٥] {أولئك} المتصفون بهذه الصفات {هم المؤمنون حقاً} فهم الذين آمنوا بالله ورسوله، وهم الذين شعرت قلوبهم الإيمان وامتثلت جوارحهم لتطبيقه {لهم درجات} رفيعة {عند ربهم} فهم مكتوبون عنده أصحاب الدرجات الرفيعة، وسينالونها في الآخرة {ومغفرة} لذنوبهم {ورزق كريم} فهم يُرزقون بإكرام وإعظام لا بإهانة وإذلال.

[٦] إن الأنفال لله والرسول، وإن كره المسلمون ذلك، فإن في كونها لله والرسول حسن العاقبة والمصير، كما إن إخراجك يا رسول الله لوقعة بدر كان بالحق ولعاقبة حسنة، وإن كره المسلمون ذلك، فإن الله وحده يعلم العواقب، ويأمر بما هو خير {كما أخرجك ربك} يا رسول الله {من بيتك بالحق} والمراد بـ«البيت» هنا محل الإقامة، وهي المدينة المنورة، ومعنى «الإخراج» أمره بذلك {و} الحال {إن فريقاً من المؤمنين لكارهون} للخروج.

وقصة بدر في الجملة هي إن الكفار في مكة لما شرّدوا قسماً من المسلمين إلى الحبشة، وطاردوا الرسول وأصحابه، حتى اضطروا للهجرة تحت جنح الظلام، أخذوا بعد ذلك يؤذون المسلمين الباقين في مكة، ويشيعون حول النبي (صلى الله عليه وآله) وأصحابه مختلف الإشاعات، فأراد النبي (صلى الله عليه وآله) أن يضع حداً لهذه التعديات التي لا مبرر لها إلاّ الحقد والحسد. وأخيراً عزم على قطع طريق تجارتهم التي تسير بين مكة والشام، ليتأدبوا ويأخذوا بذلك حذرهم.

فخرجت عيرٌ لقريش إلى الشام فيها كثرة وافرة من أموالهم، فأمر الرسول (صلى الله عليه وآله) أصحابه بالخروج ليأخذوها، وأخبرهم أن الله قد وعده إحدى الطائفتين؛ غنيمة العير، أو مطاردة قريش

ومحاربتها وتبديدها، فخرج هو (صلى الله عليه وآله) في ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، فلما قارب «بدر» وهي بئر هناك أبلغ أبا سفيان ذلك، وكان في العير فخاف خوفاً شديداً، وبعث إلى قريش فأخبرهم بذلك وطلب منهم الخروج والدفاع عن العير وأمر بالعير فأخذ بها نحو ساحل البحر، وتركوا الطريق ومروا مسرعين، ونزل جبرئيل (عليه السلام) على رسول الله (صلى الله عليه وآله) فأخبر أن العير قد أفلتت وأن قريشاً قد أقبلت لتمنع عن عيرها وأمره بالقتال، ووعده النصر، فأخبر به رسول الله أصحابه فجزعوا من ذلك وخافوا خوفاً شديداً إذ لم يتهيأوا للحرب، فقال رسول الله: أشيروا عليّ. فقام أبو بكر فقال: يا رسول الله إنها قريش وخيلاؤها ما آمنت منذ كفرت ولا ذلت منذ عزّت ولم نخرج على هيئة الحرب. فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): اجلس فجلس.

فقال (صلى الله عليه وآله): أشيروا عليَّ. فقام عمر فقال مثل مقالة أبي بكر، فقال: اجلس، ثم قام المقداد فقال: يا رسول الله إنها قريش وخيلاؤها، وقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به حق من عند الله ولو أمرتنا أن نخوض جو الفضاء وشوك الهراس لخضنا معك ولا نقول لك ما قالت بنو إسرائيل لموسى: «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون» ولكنا نقول: «اذهب أنت وربك إنا معكما مقاتلون». فجزاه النبي خيراً ثم جلس ثم قال: أشيروا عليّ. فقام سعد بن معاذ فقال: بأبي أنت وأمي يارسول الله كأنك أردتنا؟ قال: نعم قال: فلعلك خرجت على أمر قد أمرت بغيره. قال: نعم. قال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به حق من عند الله ، فمر بنا بما شئت وخذ من أموالنا ما شئت.

ثم قال: والله لو أمرتنا أن نخوض هذا البحر لخضناه معك. إلى أن قال: ولكن نعد لك الرواحل ونلقي عدونا فإنا صبّر عند اللقاء أنجاد في الحرب، وإنا لنرجوا أن يقرّ الله عينيك بنا. فقال رسول الله: كأني بمصرع فلان هاهنا وبمصرع فلان هاهنا وبمصرع أبي جهل وعتبة وشيبة فإن الله وعدني إحدى الطائفتين ولن يخلف الله الميعاد(٥٤)، فنزلت الآية: «كما أخرجك» فأمر بالرحيل حتى نزل ماء بدر وأقبلت قريش.

[٧] {يجادلونك} يا رسول الله بعض المؤمنين فيما دعوتهم إليه من محاربة قريش {في الحق} فإن الحرب واجب وحق {بعدما تبين} أنه حق، فإنهم كانوا يقولون: هلاّ أخبرتنا لنعد عدتنا للحرب، وهم يعلمون أنك لا تأمرهم إلاّ بأمر الله سبحانه كما قال سبحانه: (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى)(٥٥).

(٥٤) بحار الأنوار: ج١٩، ص٢٤٧.

(٥٥) سورة النجم: ٤ و٥.

{كأنما} هؤلاء المجادلين {يساقون إلى الموت} فيظنون أن سوقهم إلى الحرب موجب لهلاكهم حيث لم يعدوا لها العدة {وهم ينظرون} أي ينظرون إلى الموت عياناً ويرونه بأبصارهم، فكيف يكون حال مثل هذا الإنسان، كذلك حال هؤلاء المجادلين.

[٨] {و} اذكروا أيها المسلمون {إذ يعدكم الله} على لسان رسوله {إحدى الطائفتين أنها لكم} إما طائفة العير فتغنمونها، وإما قريش فتقتلونهم وتتخلصون من بعض أعدائكم {وتودون} أي تحبون وترغبون {أن غير ذات الشوكة تكون لكم} فإنهم كانوا يحبون أن يغنموا العير لئلاّ يلاقوا مشقة الحرب، والحال أن الحرب كانت لهم أكثر شوكة إذ تركز في العدو خوفهم وشوكتهم، وكأن الشوكة مأخوذة من الشوك لأن في الحرب شوكاً وليس الأمر سهلاً، فيكون تشبيهاً، أو المراد بالشوكة: السلاح.

{ويريد الله} حيث أمركم بالحرب {أن يحق الحق بكلماته} أي يظهر الحق، بما بيّنه وأوجبه عليكم من المقاتلة {ويقطع دابر الكافرين} أي يستأصلهم، فإن «الدابر» هو الأصل، أي يجذ الكفر من أصوله، فإن وقعه بدر كانت أقوى الأسباب لنصرة المسلمين إلى الأبد وهزيمة الكافرين إلى الأبد.

[٩] وإنما أراد الله ذلك {ليحق الحق} أي يظهر حقيقة الإسلام، وفي التكرار تركيز وتوطئة لقوله: {ويبطل الباطل} أي يظهر بطلانه بإهلاك الكفار {ولو كره} ذلك {المجرمون} الذين أجرموا بالكفر والعصيان.

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُرْدِفِينَ (١٠) وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١١) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ (١٢) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلاَئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٤) ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ (١٦) وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٧)

[١٠] ولما بلغ أصحاب رسول الله كثرة قريش وما معها من السلاح والعتاد فزعوا واستغاثوا بالله وتضرعوا. «و» اذكروا أيها المسلمون {إذ تستغيثون} أي تطلبون الغوث والنصرة من {ربكم فاستجاب لكم} دعاءكم وتضرعكم {أني ممدّكم} أي مرسل إليكم مدداً {بألف من الملائكة مردفين} أي بعضهم خلف بعض، فهم مترادفون متتابعون في النزول إليكم.

فإن قيل: كيف يمكن الجمع بين هذه الآية وبين قوله: (ثلاثة آلاف)[٥٦] (خمسة آلاف)[٥٧]؟

فالجواب: إن الألف كانوا مقاتلين، والبقية للبشارة وتقوية القلوب، كما يقال: إن العاملين في المدينة عشرة، فإذا قيل: إنهم أكثر؟ أجيب بأن المائة مثلاً إنما هي من حيث العدد والحركة والعمل للعشرة. وفي الحديث: إن الرسول (صلى الله عليه وآله) لما نظر إلى كثرة عدد المشركين وقلة عدد المسلمين استقبل القبلة وقال: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تُعبد في الأرض»[٥٨]. فما زال يهتف بربه مادّاً يديه حتى سقط رداؤه عن منكبه، فأنزل الله الملائكة، وقد قاتلت الملائكة وأسرت بعض المشركين.

[١١] ثم يذكر سبحانه أن إنزال الملائكة إنما كان لأجل تقوية قلوب المسلمين، وإلاّ فنصر الله سبحانه لا يحتاج إلى مدد ملك أو غيره {وما جعله الله} أي ما جعل الله الإمداد بالملائكة {إلاّ بشرى} أي بشارة لكم بالنصر، فإن الإنسان يستبشر بكثرة الأعوان وإن كان علم أنهم للسواد والكثرة فقط {ولتطمئن به} أي بالإمداد {قلوبكم} فيزول الخوف والوسوسة عنها {و} إلاّ في الحقيقة والواقع

(٥٦) سورة آل عمران: ١٢٥.

(٥٧) سورة آل عمران: ١٢٦.

(٥٨) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج٣، ص٢٥٩.

{ما النصر} أي ليس النصر {إلاّ من عند الله} ولا تأثير للإمداد والإعداد وإنما هي روابط ووسائط إلاّ من عند الله {إن الله عزيز} غالب بسلطانه {حكيم} فيما يفعل، وهذا لا يدل على عدم تهيئة الأسباب، بل يدل على لزوم تهيئتها، فإن الملائكة وقوى ما وراء الطبيعة بشائر، وإلاّ فالنصر من الله بأسبابه الظاهرية التي قررها هو سبحانه، كما قال تعالى: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)(٥٩).

[١٢] ولما أمسى القوم المساء قبل الواقعة أخذ أصحاب الرسول النوم، من كثرة التعب وقد كان إلقاء الله النوم عليهم ليذهب خوفهم، ويتقووا على القتال غداً، فإن من استراح ونام لم يقلق كما يقلق الساهر، كما أن أعصابه تهدأ، وقواه تكثر فيتمكن مما لا يتمكن عليه الساهر، واحتلم كثير من المسلمين تلك الليلة، وكان موضع نزولهم كثير الرمل، مما سبب صعوبة الحركة، فوسوس إليهم الشيطان قائلاً: كيف أنتم على حق، وقد أصابتكم الجنابة، ومحلّكم غير صالح، ولا ماء عندكم، بينما المشركون على الماء، فأنزل الله المطر، حتى لبد الأرض، واغتسلوا، وارتووا. فاذكروا أيها المسلمون {إذ يغشيكم} أي يستولي عليكم {النعاس} أي النوم {أمنةً} أي أماناً {منه} سبحانه، فإنه لم يفعل ذلك إلاّ لأجل أمنكم وراحتكم وإزالة الخوف عنكم، و«الأمنة» الدعة التي تنافي المخافة {وينزل عليكم من السماء ماءً ليطهركم به} من حدث الجنابة {ويذهب عنكم رجز الشيطان} أي وسوسته فإنه كان يوسوس في قلوبهم: كيف يكونون على حق، وهم نجسون، ومحلهم رمل، وهم ظمأى {وليربط على قلوبكم} أي ليشد قلوبكم ويقويها، فإن النوم ونزول المطر قوّيا قلوبهم حيث أزالا المخاوف والوساوس والأتعاب {ويثبت به} أي بالمطر {الأقدام} أي أقدامكم في الحرب بتلبد الرمل، أو المراد تقوية القلب فإنه يكنى بذلك عنه، أو المراد ذهاب الحالات الخمسة بالأمرين؛ فالنوم للدعة، والمطر لتطهير البدن عن نجاسة المني، والاغتسال لذهاب رجس الشيطان، وتقوية القلب عن وسوسته، وتثبيت الأقدام بتلبد الرمل.

[١٣] واذكروا أيها المسلمون {إذ يوحي} وهم وإن لم يروا ذلك ولم يسمعوه بآذانهم إلاّ أنهم علموه {ربك} يا رسول الله {إلى الملائكة} المنزلين في وقعة بدر {أني معكم} وهذا لتقوية قلوب المسلمين، وإلا فمن المعلوم أن الملائكة لا تفعل شيئاً إلاّ بأمر الله سبحانه {فثبتوا الذين آمنوا} بتقوية قلوبهم ودحر الشياطين عنهم، فإن في القلب لُمّتان: لُمّة من الملائكة ولمة من الشيطان، فالنوايا الحسنة وما أشبه من الملائكة، والنوايا السيئة وما أشبه من الشياطين.

{سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب} أي الخوف من المؤمنين، وقد كان ذلك، فقد سلّط الله على الكفار رعب عظيم، حتى أن أبا لهب قال لأبي سفيان ـ بعد الواقعة ـ: كيف كان أمر الناس؟ قال: لا شيء والله إلاّ أن لقيناهم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا ويأسروننا كيف شاءوا، وأيم الله مع ذلك مالت الناس، رأينا رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض ما تليق شيئاً ولا يقوم لها شيء {فاضربوا}

---

(٥٩) سورة الأنفال: ٦١.

أيها الملائكة {فوق الأعناق} أي الرؤوس أو المذابح، فإنهما فوق الأعناق، أو هو كناية عن ضرب القفا للإذلال والإهانة {واضربوا منهم} أي من الكفار {كل بنان} أي أصابع اليد والرجل، أو المعنى: جُزّوا أعناقهم واقطعوا أطرافهم.

[١٤] {ذلك} التعذيب والضرب فوق الأعناق والبنان {بـ} سبب {أنهم شاقوا الله} أي خالفوا الله {ورسوله} فكأنهم في شق والله والرسول في شق آخر {ومن يشاقق الله ورسوله} ومن المعلوم أنه يكتفي بذكر الله وحده أو الرسول وحده، ولكن ذلك لتعظيم الرسول حين يُقرن باسم الله سبحانه، وأنه الشخص المقابل لهم في المشاقة {فإن الله شديد العقاب} في الدنيا بعقوبة الكافرين على أيدي المسلمين، وفي الآخرة بإخلادهم في النار.

[١٥] {ذلكم} «ذلك» إشارة إلى العذاب في الدنيا بالأسر والقتل، و«كم» خطاب للكفار {فذوقوه} أي ذوقوا هذا العذاب. و«الفاء» دخلت لإفادة الترتب على الكفر {وأن للكافرين} علاوة على هذا العقاب العاجل {عذاب النار} في الآخرة. ولا يخفى أن «الذوق» يستعمل كثيراً في غير الذوق باللسان، باعتبار إدراك الإنسان له كما يدرك باللسان المذوقات، وهو يستعمل بالنسبة إلى الألم الروحي، كما يقال: «ذق الذل»، وبالنسبة إلى الألم الجسمي، كما يقال: «ذق السوط»، قال سبحانه: (فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ)[٦٠]، وقال: (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ)[٦١].

[١٦] {يا أيها الذين آمنوا} الخطاب عام لكل مؤمن، وإن كان نزول الآية بمناسبة قصة بدر {إذا لقيتم الذين كفروا} من اللقاء في الحرب {زحفاً} «حال» أي حال كونهم وإياكم زاحفين متدانين للقتال، فإن الزحف بمعنى الدنو {فلا تولّوهم الأدبار} أي لا تنهزموا بأن تجعلوا ظهوركم إليهم، فإن الإنسان لا يجعل ظهره إلى ساحة القتال إلاّ إذا أراد الفرار.

[١٧] {ومن يولهم يومئذ دبره} أي من يجعل ظهره إليهم يوم القتال، وإنما قال «يومئذ» لأنه فُهم من قوله: «إِذَا لَقِيتُمُ» {إلاّ} إذا كان {متحرفاً لقتال} أي تاركاً موقفه إلى موقف آخر أصلح للقتال من موقفه الأول، و«التحرّف» الزوال عن جهة الاستواء إلى جهة الحرف بمعنى الطرف، واللفظ، حال، أي: في حال كونه قاصداً الطرف حتى يكون أمكن في الحرب {أو متحيزاً إلى فئة} طلب حيزاً غير حيزه السابق، أي مكان جديد، يقال: «فلان متحيز إلى فلان» أي منحاز نحوه، منضم إليه. فالمعنى: أنه ولّى دبره لينضم إلى جماعة يستعين بهم في القتال، فإن الإنسان وحده يجترئ عليه العدو أكثر مما إذا كان مع جماعة {فقد باء} خبر «ومن يولهم» أي أن المولي دبره يرجع {بغضب من الله} فكأنه كان ذاهباً إلى الحرب برضى الله، والآن بفراره رجع يحمل الغضب {ومأواه} أي مصيره {جهنم وبئس المصير} وبهذا يستدل على أن الفرار من الزحف كبيرة موبقة.

---

(٦٠) سورة النحل: ١١٣.

(٦١) سورة الدخان: ٥٠.

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاَءً حَسَناً إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨) ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (١٩) إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢١) وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ (٢٢) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ (٢٣) وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٥) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٦)

[١٨] ثم ذكر سبحانه أن السبب الحقيقي في انهزام الكفار إنما كان هو الله سبحانه {فلم تقتلوهم} أي لم تقتلوا الكفار أنتم أيها المسلون. و«النفي عنهم» باعتبار كونهم السبب الأضعف، فلولا تشجيع الله سبحانه بإنزال الملائكة وإنزال المطر وتقوية قلوبهم ومساعدة الملائكة لهم في القتل والأسر لم يتمكنوا من الغلبة عليهم، ومن المتعارف أن ينسب الفعل إلى أقوى السببين {ولكن الله قتلهم} بتهيئة الأسباب وإلقاء الرعب في قلوب الكفار حيث انهارت أعصابهم {وما رميت} يا رسول الله، أو أيها المسلم {إذ رميت} والمراد بالأول: الرمي المصيب، فإن الفعل ينفى عمن لم تكن نتيجة الفعل بقدرته، كما يقال لمن ألقى حجراً بدون معرفة فاصطاد طائراً: «فما صدت أنت وإنما صادته الصدفة». ولعل المراد بـ«الرمي»، رمي القوم بالهلاك، كما يقال: «رماه الله بهلاك ونكال». {ولكن الله رمى} فإنه كان السبب الأقوى في هلاكهم ونكالهم.

وذكر جمع من المفسرين: أن المراد بذلك، رمي الكفار بالتراب، فإن جبرئيل (عليه السلام) قال للنبي (صلى الله عليه وآله) يوم بدر: خذ قبضة من تراب فارمهم بها. فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لما التقى الجمعان لعلي (عليه السلام): أعطني قبضة من حصى الوادي. فناوله كفاً من حصى عليه تراب فرمى به في وجوه القوم وقال: شاهت الوجوه، فلم يبق مشرك إلاّ دخل في عينه وفمه ومنخريه منه شيء وتبعهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم وكانت تلك الرمية سبب هزيمة القوم، ولما أن اصطف القوم برز عتبة وشيبة والوليد للقتال وطلبوا المبارز فخرج إليهم بعض المسلمين فلم يرضوا بهم لما جرت العادة من عدم احتشام القرن إلاّ بقرنه حتى برز إليهم عليّ (عليه السلام) وحمزة وعبيدة، ودارت المعركة بنصرة هؤلاء، وقتل أولئك، وهنا حمي الوطيس واستعرت الحرب ولم تنكشف إلاّ بهزيمة الكفار وقتل جماعة كبيرة

منهم، وأخذ المسلمون يأسرونهم والملائكة تعينهم في الأسر كما أعانتهم في القتل. فكان المسلم يشير بسيفه أو رمحه ولما يصل إلى الكافر فإذا به يخر قتيلاً تقتله الملائكة، وكذلك الأسر. حتى أن العباس أسره أبو اليسر وكان العباس جسيماً وأبو اليسر نحيفاً، فقال له الرسول (صلى الله عليه وآله): كيف أسرت العباس يا أبا اليسر؟ فقال: يا رسول الله لقد أعانني عليه رجل ما رأيته قبل ذلك ولا بعده. فقال الرسول (صلى الله عليه وآله): لقد أعانك عليه ملك كريم[٦٢]. وكل هذه كانت للبشرى وإنما النصر كان من عند الله.

{و} قد فعل الله سبحانه ما فعل {ليبلي} أي لينعم على {المؤمنين منه} أي من عنده سبحانه {بلاءً حسناً} أي نعمة جسيمة، فـ«الواو» على هذا استئنافية متعلقة بفعل مقدّر، كما قدّرناه، أو المراد: ليمتحن المؤمنين امتحاناً حسناً، فإن البلاء يأتي بمعنى النعمة كما يأتي بمعنى الاختبار، وإنما يقال للنعمة: بلاء، لأن أصل البلاء ما يظهر به الأمر من الشكر والصبر، فالنعمة بلاء لأنها تظهر الشكر، والمصيبة بلاء لأنها تظهر الصبر {إن الله سميع} لأقوالكم {عليم} بضمائركم ونياتكم. وفي الحرب تظهر أقوال، وتجول في الصدر نيات، فمن الأحرى أن يحفظ الإنسان قلبه ولسانه لئلاّ ينحرفان عن نهج الصواب بمحضر مَن يسمع ويعلم كل شيء.

[١٩] الأمر {ذلكم} أي أن الأمر كما ذكرنا من القصة، وهذا كما أن من يذكر قصة يقول بعدها: «هكذا» وهذا شبه تأكيد للكلام السابق، فـ«ذلك» إشارة و«كم» للخطاب، أي: أخاطبكم أيها المؤمنون أن الأمر كذلك {وأن الله موهن كيد الكافرين} هذا عطف على «ذلكم» أي أن الغرض كان بلاء المؤمنين ووهن كيد الكافرين. هذا بناءً على رجوع «ذلكم» إلى البلاء المستفاد من قوله: «ليبلي المؤمنين»، وإلاّ كان «وأن الله» استئنافية.

[٢٠] وحيث بيّن سبحانه أن الله يوهن كيد الكافرين خاطب الكفار بقوله: {إن تستفتحوا} أيها الكفار {فقد جاءكم الفتح} وهذا تهكُّم، فإن أبا سفيان دعا قبل الواقعة بقوله: «اللهم أهلك أضل الفريقين وأقطعهما للرحم»، فقد استجاب الله دعاءه وأهلك أضل الفريقين وأقطعهما للرحم. والمراد بـ«الاستفتاح» طلب الفتح، كأن الذي يقع في مشكلة قد انسدت عليه الأبواب فيطلب فتحها ليتخلص من المشكلة.

ثم يرغّبهم سبحانه في الانتهاء عن كفرهم {وإن تنتهوا} عن الكفر ومعاداة المسلين {فهو خير لكم} في دنياكم وآخرتكم {وإن} لم تنتهوا و {تعودوا} إلى كفركم ومشاقتكم لله والرسول {نعد} إلى ما رأيتم من إهلاككم وإذلالكم، وبأسنا لا يقف أمامه تجمع وكثرة {ولن تغني عنكم فئتُكم شيئاً} أي لا تفيد بكم جماعتكم شيئاً {ولو كثرت} فإن النجاح ليس بالكثرة وإنما بالقوة التي هي متوفرة لدى

---

(٦٢) بحار الأنوار: ج١٩، ص٢٢٧.

المؤمنين {وأن الله مع المؤمنين} ومن المعلوم انطباق هذه الآيات في كل زمان ومكان بشرط أن يعمل المسلمون على شرائط الإيمان.

[٢١] ثم خاطب سبحانه المؤمنين أن يلتزموا بما هو سبب نجاحهم بقوله: {يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله} واختصاص الخطاب بالمؤمنين، مع أن الإطاعة واجبة على الجميع، لأنهم هم المصغون المنتفعون بالخطاب دون غيرهم {ولا تولوا عنه} أي لا تُعرضوا عن الرسول (صلى الله عليه وآله) {و} الحال {أنتم تسمعون} دعاءه لكم وأمره ونهيه إياكم، فإن المعرض بعد العلم أشد عقوبة عن المعرض بلا علم.

[٢٢] {ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا} وهم اليهود والمنافقون {وهم لايسمعون} حقيقةً، إذ لو سمعوا ووعوا لعلموا، فعدم علمهم دليل على عدم سماعهم سماع متعظٍ واعٍ، فإنه يقال للعالم التارك لعلمه: «إنه غير عالم»، كما يقال لمن سمع قول الرشد، فسلك سبيل الغي: «أنه لم يسمع».

[٢٣] وإذ أمر الله سبحانه المؤمنين بالسماع النافع المقترن بالعمل حذّرهم أن يكونوا كالدابة التي لا تسمع إلاّ نداءً من غير أن تعقل وتعمل حسب ما سمعت، ولا تنطق بالخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر {إن شر الدواب عند الله} الكفار، إنهم أشر من الدابة، حيث إن الدابة لا تعقل، وهؤلاء يعقلون ثم يعرضون {الصم البكم} «صُمّ» جمع «أصم»: وهو الذي لا يسمع، و«بُكْم» جمع «أبكم»: وهو الذي لايتكلم {الذين لا يعقلون} عقلاً مثمراً، وإلا فهم عقلاء، فإن هؤلاء شر ما دبّ على وجه الأرض من الحيوان حيث لم ينتفعوا بما سمعوا من الحق، ولم يتكلموا به.

روي عن الإمام الباقر (عليه السلام): «إنما نزلت في بني عبد الدار، لم يكن أسلم منهم غير مصعب بن عمير وحليف لهم يقال له: سويبط»[٦٣].

[٢٤] {ولو علم الله فيهم خيراً} قبولاً للحق وإذعاناً به وإنصافاً في الأمر {لأسمعهم} إسماعاً نافعاً، ولكنه علم أن ليس فيهم خير، ولا رجاء بهم، فلذا تركهم مغلقي القلوب، وهذا كما تقول: «لو علمت في هذه الأرض قابلية للزرع لحرثتها»، حيث إنها لا تصبح قابلة للزراعة حتى بالحرث. وهكذا قلب الإنسان القابل وقلب الإنسان غير القابل، فإن أغشية الكفر قد شملتهما، لكن الله سبحانه يزيل الغشاء عن قلب القابل حيث يعرف فيه الخير، ولا يزيله عن قلب غير القابل حيث يعرف فيه عدم الخير.

وبهذا تحقق أنه لا مجال للإشكال بأنه إن أريد من «الإسماع» المعنى الظاهري، فقد أسمع الله سبحانه كل برٍّ وفاجر؛ فلا يناسبه التعليق على «لو» الامتناعية، وإن أريد منه تطهير القلوب تكويناً فإن الله لو فعل ذلك لكان فيه من الخير؛ فلا يناسبه ما يفهم من الآية من عدم إمكان الخير.

---

(٦٣) بحار الأنوار: ج٩، ص٩٦.

وحاصل الجواب: أن هناك ثلاث مراتب: الإسماع الظاهري، وإزالة الأغشية، وطهارة القلوب ذاتاً. فإزالة الأغشية خاصة بالمؤمن، بينما الإسماع عام لكل واحد، فالمعنى: لو علم الله الطهارة الذاتية في قلوبهم لأزال الأغشية المظلمة عنها، علاوة على الإسماع، ولكن علم أن ذلك لا ينجح، فإن قلوبهم كالأرض السبخة التي لا ينفع معها الحرث، فلذا تركهم وشأنهم.

{ولو أسمعهم} بهذا النحو من الإسماع بإزالة الأغشية {لتولوا} أي أعرضوا، لأن قلوبهم سبخة لا ينفعها حتى إزالة الأغشية {وهم معرضون} عن الحق.

وربما أورد بأنه: كيف يمكن ذلك، والحال أن لازم هذا النحو من القياس المنطقي ـ بحذف الأوسط ـ «لو علم الله فيهم خيراً لتولوا»، مع وضوح أنه لو علم الله فيهم خيراً لم يتولوا؟

والجواب: إن الكلام جارٍ مجرى العرف، فليس هذا قياساً واحداً بل قياس وزيادة ـ تقديره «لو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم، لكنه علم فيهم عدم الخير فلم يُسمعهم»، «ولو أسمعهم مع علمه عدم الخير فيهم لتولوا» وهذا كما تقول عن ولدٍ لك غير قابل للكسب: «لو علمتُ أنه غير كاسب لزودته برأس مال»، «ولو زودته لأتلف» تريد: لو زودته والحال أني أعلم عدم قابليته.

[٢٥] وبعدما ذكر سبحانه وجوب إطاعة الله والرسول، ألمع إلى أن في الاستجابة كل الخير كما أراهم ذلك فقال: {يا أيها الذين آمنوا استجيبوا} أي أجيبوا. ولعل السر في الإتيان بباب «الاستفعال» المفيد للطلب، إفادة أن اللازم كون الجواب عن القلب والضمير، لا بمجرد اللفظ والظاهر، فإن طلب الإنسان لأن يُجيب إنما ينبع من قلبه وباطنه {لله وللرسول} وقد تقدم أن ذكر الرسول تعظيماً له، ولأنه الداعي الذي يراه الإنسان ويقابله {إذا دعاكم لما يحييكم} فإن الحياة الكاملة إنما هي بالإيمان، إذ الحياة بمعنى الحس والحركة مرتبة ضعيفة من الحياة، والمرتبة الأعلى بمعنى السعادة الملازمة للعلم والفضيلة والرفاه والأمن والصحة، هذا بالنسبة إلى الدنيا وكذلك بالنسبة إلى الآخرة، فإن حياة الجنة هي الحياة الكاملة التي تستحق أن تسمى حياةً، أما حياة النار فإنها لا تستحق اسم الحياة، ولذا قال سبحانه: (لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَى)[٦٤].

و«إذا» ليست شرطاً له مفهوم، بل المراد إفادة أن دعوة الرسول (صلى الله عليه وآله) إنما تكون لما فيه حياة الناس. وتوحيد الفعل مع أن الله والرسول اثنان، باعتبار أن دعوتهما واحدة، أو كان باعتبار كل واحد منهما، كما قال: (طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ)[٦٥].

إنه سبحانه يريد أن تستجيبوا عن إرادة وطواعية وإن كان يقدر على كل شيء {واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه} فمن هذه قدرته، أليس يقدر على جبركم أن تؤمنوا؟ ومعنى «الحيلولة بين المرء وقلبه» أن لا تطيع الأعضاء القلب فيما يأمر وينهى، بأن يريد قلبه شيئاً فلا تطيعه الأعضاء بمنع الله

---

(٦٤) سورة طه: ٧٥.

(٦٥) سورة البقرة: ٢٦٠.

سبحانه عن الإطاعة، وكذا العكس بأن تنقل الأعضاء ـ كالعين والأذن والذوق والأنف واللامسة ـ إلى القلب معلومات فلا يفهمها، فإن القلب كالسلطان يعطي ويأخذ، والله قادر على أن يفصل بينه وبين رعيته وجيوشه {وأنه إليه تحشرون} أي واعلموا أنكم تُجمعون إليه للجزاء والحساب. ومعنى «إليه» أي إلى الموضع المقرر للجزاء، كما يقال: «ذهب إلى الله» لمن يذهب إلى الحج، فيراد المكان المقرر لإتيان الأعمال. إن قلوبكم بين يديه وحشركم إليه، فأذعنوا له حتى تحيون حياةً طيبة.

[٢٦] {واتقوا} أي خافوا، إن لم تستجيبوا {فتنةً} وبلاءً عامّاً {لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة} فإن أفراد الأمة إذا سكتوا على المنكر عمّهم الله بالعقاب، أولئك بالعصيان وهؤلاء بالسكوت، كمن لا يأخذ بيدي من يريد ثقب السفينة فإنه يُقرن مع الثاقب. كما مثل الرسول (صلى الله عليه وآله). ومن قرأ: «لتصيبن» أدخل الساكت في جملة الظالمين، لأنه ظالم بسكوته. ويكون المعنى على هذا: إن الفتنة تصيبكم أيها الظلمة فقط، فلا تقولوا: كيف تصيبنا الفتنة فقط ونحن في جملة غير الظالمين؟ تريدون بذلك عدم إصابتكم بالفتنة لأنكم بين أظهر غير الظالمين، فإن الله سبحانه قادر على إصابتكم فقط، كما أصابت الفتنة أصحاب السبت دون الذين نهوهم ووعظوهم.

هذا، ولكنا حيث نرجح عدم الزيادة والنقيصة في القرآن الحكيم، وأن ما بين دفتيه هو القرآن المنزل حتى أن النظم أيضاً منه (صلى الله عليه وآله)، نُوجّه الروايات الواردة «الخاصة بالقراءات» بأنها تأويل واجتهاد لا نزول ووحي.

{واعلموا أن الله شديد العقاب} فإذا أُخذتم يكون أخذه أليماً شديداً، فاستجيبوا لله والرسول، فإن فيه حياتكم، وفي غيره النكال والعقاب.

وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٣٠) وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣١) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٣٢) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٣) وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٤)

[٢٧] وقد رأيتم كيف تفضّل الله عليكم حين استجبتم له وللرسول {واذكروا} أيها المؤمنون {إذ أنتم قليل} في العدد {مستضعفون في الأرض} يطلب الأعداء ضعفكم فيُنزلون بكم أنواع الإهانة والأذى {تخافون أن يتخطّفكم الناس} أي يأخذونكم فجأة، و«الاختطاف» إما لأجل السجن أو لأجل القتل أو لأجل الأذية، والمراد بـ«الناس» الكفار {فآواكم} أي جعل الله سبحانه لكم مأوىً تأوون إليه، وهي المدينة {وأيدكم} قوّاكم {بنصره} لكم على أعدائكم حتى صرتم أقوياء بفضله سبحانه {ورزقكم من الطيبات} فإنهم في مكة كانوا فقراء لايجدون طعاماً ولا شراباً، حتى إذا صاروا في المدينة زرعوا واتجروا فرُزقوا من الطيبات {لعلكم تشكرون} أي لكي تشكروا فضله سبحانه، ونعمته وإحسانه عليكم.

[٢٨] ولما ذكر سبحانه وجوب استجابة المؤمن لله ورسوله، نهى عن الخيانة له وللرسول بقوله سبحانه: {يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله} بترك أوامره {والرسول} بترك شريعته. وقد نزلت هذه الآية في أبي لبابة، وإن كانت هي عامة لكل من يريد الخيانة.

فقد ورد أن الرسول (صلى الله عليه وآله) حاصر يهود بني قريضة إحدى وعشرين ليلة . لما خانوا عهده . فسألوه الصلح على ما صالح عليه بنوا النظير بأن يصيروا إلى أذرعات وأريحا من أرض الشام فأبى إلاّ أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ فقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة وكان مناصحاً لهم لأن عياله وماله وولده كانوا عندهم، فبعثه رسول الله فقالوا: ما ترى يا أبا لبابة أننزل على حكم سعد؟ فأشار بيده إلى حلقه «إنه الذبح» فلا تفعلوا، فأتى جبرئيل رسول الله (صلى الله عليه وآله) فأخبره بذلك، قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني خنت الله ورسوله. فلم يرجع إلى الرسول بل

جاء إلى المسجد وشد نفسه بسارية من سواري المسجد وقال: لا والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله علي.

فمكث أياماً لا يذوق طعاماً ولا شراباً حتى خرّ مغشيّاً عليه ثم تاب الله عليه، ونزلت: (وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)(٦٦)، فقيل له: يا أبا لبابة قد تاب الله عليك. قال: لا والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله هو الذي يحلني. فجاءه فحله بيده ثم قال أبو لبابة: إن من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب وأن انخلع من مالي. فقال النبي (صلى الله عليه وآله): يجزيك الثلث أن تصدّق به(٦٧).

{و} لا {تخونوا أماناتكم} أي أمانة بعضكم عند بعض من مال، أو عِرض، أو ما أشبه {وأنتم تعلمون} أن الخيانة محرّمة موجبة للعقاب والعذاب. ومن الممكن أن تكون جملة «وتخونوا» استفهامية إنكارية، أي: «كيف تخونوا أماناتكم في حال العلم»، وسميت خيانة الله والرسول خيانة الأمانة لنفس الإنسان.

[٢٩] {واعلموا} أي تيقنوا {أنما أموالكم وأولادكم فتنة} امتحان وابتلاء ليختبر الله سبحانه من يرجّح أمر الله على ماله وولده، ومن يرجّحهما على أمره سبحانه، فإن أبا لبابة حمله على ما فعل أن أمواله وأولاده كانت عند اليهود فخاف إن نصح لله والرسول أن تذهب أمواله وأولاده. {وأن الله عنده أجر عظيم} فمن رجّح أمره سبحانه على ماله وولده أوجر بأعظم أجر.

[٣٠] إن الأمانة حمل ثقيل لا يقوم بها إلاّ من اتقى الله، ولذا يقول سبحانه: {يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً} فإن من اتقى الله سبحانه صار ميزان الخير والشر ملكة له، فيفرق بين الحق والباطل بتلك الملكة الحاصلة بالتقوى، فإن عرفان الإنسان أن عليه مراقباً يحدّد موقفه من الأعمال والأقوال. {ويكفر عنكم سيئاتكم} التي عملتموها. ومعنى «تكفير السيئات» سترها، فإن التكفير بمعنى الستر والتغطية {ويغفر لكم} ذنوبكم بإزالتها، فإن الستر غير الإزالة، وهما نعمتان وفضلان {والله ذو الفضل العظيم} فإنه يتفضل عليكم بالتكفير والمغفرة وجعل الفرقان.

[٣١] وإذ تقدم الكلام حول نصرة المؤمنين في بدر بعد أن كانوا قليلاً مستضعفين في مكة، بيّن سبحانه حالة النبي (صلى الله عليه وآله) قبل الهجرة {و} اذكر يا رسول الله {إذ يمكر بك الذين كفروا} أي يدبرون مؤامرةً {ليثبتوك} أي يُقيّدوك ويسجونك فتثبت في مكة لا تقدر على الإرشاد والتبليغ {أو يقتلوك} ويستأصلوا شأفتك {أو يُخرجوك} ويبعدوك، بإرسالك إلى بعض المحالّ النائية، حتى لا تتصل بأصحابك وبالناس {ويمكرون} تأكيدٌ، تهيئةً لقوله: {ويمكر الله} أي يدبر الله سبحانه

(٦٦) سورة التوبة: ١٠٢.

(٦٧) راجع تفسير القمي: ج١، ص٣٠٣.

الأمر خفية، فإن التدبير لا يكون إلاّ خفية {والله خير الماكرين} فإنه أعرف بطرق العلاج. والفرق بين مكر الله سبحانه ومكر الناس أن الأول لا يكون إلاّ بحق، والثاني لا يستعمل ـ غالباً ـ إلاّ إذا كان بباطل.

إن هذه الآية الكريمة نزلت في قصة هجرة النبي (صلى الله عليه وآله) وذلك أن قريشاً اجتمعت فخرج من كل بطن أناس إلى دار الندوة ليتشاوروا فيما يصنعون برسول الله (صلى الله عليه وآله) فإذا شيخ قائم بالباب وإذ ذهبوا إليه ليخرجوه قال: أنا شيخ من مصر «أو نجد» أدخلوني معكم. قالوا: ومن أنت يا شيخ؟ فقال: أنا شيخ من مصر «أو نجد» ولي رأي أشير به عليكم. فدخلوا وجلسوا فتشاوروا وهو جالس وأجمعوا أمرهم على أن يوثقوا الرسول (صلى الله عليه وآله)، قال الشيخ: هذا ليس بالرأي، فإن فعلتم هذا ذهب أصحابه وفكّوا وثاقه، ومحمد رجل حلو اللسان فإنه يفسد عليكم أبناءكم وخدمكم وما ينفع أحدكم بهم بعد أن أفسدهم محمد. ثم تشاوروا فأجمعوا أمرهم على أن يُخرجوه من بلادهم، فقال الشيخ: هذا ليس بالرأي؛ إنه إن خرج أحاط به الناس الأعراب لحلو منطقه وأفسد عليكم من الخارج. فاستصوبوا رأيه ثم سألوه الرأي قال: أخرجوا من كل بطن من العرب إنساناً يجتمعون عليه ويضربونه ضربة رجل واحد حتى يقتلوه، فيفرّق دمه في القبائل ولا تتمكن عشيرته من المطالبة بدمه ويُجبرون على أخذ الدية، فتستريحون منه.

فأخذوا برأي الشيخ، وكان هو الشيطان «لعنه الله» تزيّ بزيّ البشر. ونزل جبرئيل على الرسول يخبره بمكر أهل الندوة، ويأمره بالفرار ليلاً، وأن يُنيم علياً (عليه السلام) مكانه ليشتبه عليهم الأمر، فلما أمسى المساء جاء الفتيان مسلّحين، وأرادوا أن يدخلوا على الرسول (صلى الله عليه وآله) لكن أبا لهب حال دون ذلك، وقال: لا أدعكم أن تدخلوا عليه بالليل فإن في الدار صبياناً ونساءً ولا نأمن أن تقع بهم يد خاطئة، فنحرسه الليلة فإذا أصبحنا دخلنا عليه. فناموا حول حجرة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأمر رسول الله أن يفرش له وقال لعلي (عليه السلام): أفدِني بنفسك. قال: نعم يا رسول الله. قال: نم على فراشي والتحف ببردتي. وكان الفتيان ينظرون من شقوق الباب فيرون في مكان الرسول شخصاً نائماً فظنوه الرسول (صلى الله عليه وآله). وجاء جبرئيل فأخذ بيد رسول الله (صلى الله عليه وآله) فأخرجه من بين ظهراني الكفار وهم نيام وهو يقرأ عليهم: (وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ)[٦٨].

وقال له جبرئيل: خذ على طريق «ثور» وهو جبل على طريق «منى» له سنام كسنام الثور فدخل غاراً كان فيه، فلما أصبحت قريش وثبوا إلى الحجرة وقصدوا الفراش فقام علي (عليه السلام) في وجوههم وقال: ما شأنكم؟ قالوا له: أين محمد؟ قال: أجعلتموني عليه رقيباً، ألستم قلتم: نخرجه من بلادنا؟ فقد خرج عنكم فأقبلوا يضربونه ويقولون: أنت تخدعنا منذ الليلة، فتفرقوا في الجبال وكان فيهم

(٦٨) سورة يس: ١٠.

رجل من خزاعة يقال له أبو كرز يقفوا الآثار، فقالوا: يا أبا كرز اليوم اليوم، فوقف بهم على باب حجرة رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقال: هذه قدم محمد والله إنها لأخت القدم التي في المقام، فما زال بهم حتى أوقفهم على باب الغار ثم قال: ما جاوزوا هذا المكان، إما أن يكون صعد إلى السماء أو دخل تحت الأرض، وقد كان بعث الله العنكبوت فنسجت على باب الغار وجاء فارس من الملائكة حتى وقف على باب الغار ثم قال: ما في الغار أحد، فتفرقوا في الشعاب وصرفهم الله عن رسوله ثم أذن له بالهجرة[٦٩].

[٣٢] {و} قد كان بعض الكفار {إذا تتلى عليهم آياتنا} من القرآن الحكيم {قالوا قد سمعنا} بآذاننا {لو نشاء لقلنا مثل هذا} المسموع، فإن العاجز المتكبر دائماً يظهر القدرة، لكنه لا يظهر منه الأثر بخلاف القادر المتواضع الذي يعمل كثيراً ويقول قليلاً {إن هذا} أي ما هذا القرآن {إلاّ أساطير الأولين} جمع «أسطورة»، والمراد بها: أخبار الماضين ومختلقاتهم. قالوا: وقد كان قائل هذا النضر بن الحارث ابن كلدة وقد أُسر يوم بدر وقُتل.

[٣٣] {و} اذكر يا رسول الله {إذ قالوا} أي بعض الكفار وهو أبو جهل: {اللهم إن كان هذا} الذي جاء به محمد {هو الحق من عندك} وكنا نحن على الباطل {فأمطر علينا حجارة} المراد بها «جنس الحجارة» وليست «التاء» للمفرد {من السماء} أي من جهة العلو، كما أمطرت على قوم لوط {أو ائتنا} أي صبّ علينا وجئنا {بعذاب أليم} مؤلم.

فقد روي أن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: أجيبوني إلى ما أدعوكم إليه تملكون بها العرب وتدين لكم العجم. فقال أبو جهل: «اللهم إن كان هذا هو الحق فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم»[٧٠].

وفي بعض الروايات: أنها أنزلت حين نصب الرسول عليّاً خليفةً له يوم غدير خم، فجاءه رجل يقال له الحارث بن عمرو الفهري فحاجّ النبي في شأن علي (عليه السلام) ثم سأله: هل هذا من الله أو منك؟ فقال النبي (صلى الله عليه وآله): بل من الله سبحانه. فأخذ يذهب وهو يدعو بهذا الدعاء «اللهم إن كان..»، حسداً وبغضاً للإمام (عليه السلام). فقال له النبي (صلى الله عليه وآله): أما تبت وأما رحلت، فركب راحلته وخرج، ولما وصل إلى خارج المدينة أتته جندلة فرضّت هامته، وفيه نزلت: (سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ)[٧١]، فقال النبي (صلى الله عليه وآله) لبعض المنافقين: انطلقوا إلى صاحبكم فقد أتاه ما استفتح به[٧٢].

---

(٦٩) راجع بحار الأنوار: ج١٩، ص٥٠.

(٧٠) بحار الأنوار: ج١٨، ص١٥٨.

(٧١) سورة المعارج: ٢.

(٧٢) راجع بحار الأنوار: ج٣٥، ص٣٢٣.

أقول: وكأن النبي (صلى الله عليه وآله) أمره بالرحيل حتى لا يمنع عن عذابه وجوده (صلى الله عليه وآله) عنده حيث قال سبحانه: «وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ». كما أنه لامنافاة بين الحديثين، فقد كانت بعض آي القرآن وسوره ينزل مرتين وأكثر، فلعلها نزلت مرة في قصة أبي جهل ومرة في قصة الحارث.

[٣٤] ثم بيّن سبحانه أنهم مع استحقاقهم العذاب لما كانوا يفعلونه، لكنه لايُعجّل لهم ما دام الرسول (صلى الله عليه وآله) فيهم، فلعلهم يرجعون ويتوبون، وما دام أنهم ـ مع كفرهم ـ يستغفرون الله سبحانه، كما روي أن أبا جهل بعد ما ذكر الدعاء قال: واستغفر الله، فقال سبحانه: {وما كان الله ليعذبهم} بإمطار الحجارة عليهم ـ كما طلبوا ـ أو غيره {وأنت فيهم} جملة حالية، أي: في حال كونك يا رسول الله بين أظهرهم، والمراد بذلك إما الرحمة بهم لأجلك، أو عدم عذابهم لاحتمال الإيمان، فإن الرسول (صلى الله عليه وآله) ما دام فيهم يحتمل رجوعهم وهدايتهم. {وما كان الله معذّبهم وهم يستغفرون} ولعل اختلاف التعبير في «ليعذبهم» و«معذبهم» لأجل أن كون الرسول (صلى الله عليه وآله) بين أظهرهم له أمد ولذا جاء بالفعل، أما الاستغفار فإنه لا مدة له ولذا جيء بالاسم الدال على الدوام.

وَمَا لَهُمْ أَلاَ يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (٣٥) وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاَ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٦) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٧) لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٣٨) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ (٣٩) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ للهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَوْلاَكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٤١)

[٣٥] ثم بيّن سبحانه أنه وإن كان لا يعذبهم إلاّ أنهم يستحقون العذاب بما يرتكبون من الآثام، فقال سبحانه: {وما لهم ألاّ يعذبهم الله} أي لم لا يعذبهم وأي أمر يوجب ترك تعذيبهم {و} الحال أن {هم يصدون} ويمنعون الناس المؤمنين {عن المسجد الحرام} فقد أخرجوا الرسول (صلى الله عليه وآله) والمؤمنين، وأجبروهم إلى الهجرة نحو الحبشة والطائف والمدينة {و} الحال أنهم {ما كانوا أولياءه} أي أولياء المسجد، أي لم يكن المشركون أصحاب ولاية على المسجد الحرام حتى يكون الصدّ عنه مشروعاً، فإنهم حيث كفروا برب المسجد وخالفوا أوامره لوضع الأصنام فيه وهتكوا حرمته بالتصفيق فيه، لم تكن لهم ولاية عليه {إن أولياؤه إلاّ المتقون} أي ليس أولياء المسجد إلاّ الذين يتقون الله سبحانه ويطيعون أوامره وهم المؤمنون، فإنهم أولياؤه الشرعيون {ولكن أكثرهم} أي أكثر هؤلاء المشركين {لا يعلمون} ذلك ويظنون ـ حيث أنهم ورثوا سدانة البيت من آبائهم ـ أنهم بذلك يكونون أولى بالمسجد.

ورد في حديث عن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال: «كان في الأرض أمانان من عذاب الله، وقد رفع أحدهما، فدونكم الآخر، فتمسكوا به»[٧٣]. وقرأ الآية: «وما كان الله ليعذبهم..».

[٣٦] ثم بيّن سبحانه علّة عدم كونهم أولياء المسجد، وذلك لأن صلاتهم هتك لحرمته وإنفاقهم لأجل الصدّ عنه، وهل يكون وليّ شيء هاتكاً وصاداً عنه؟ {وما كان صلاتهم} أي دعاء المشركين وعبادتهم {عند البيت} الحرام {إلاّ مكاءً وتصدية} «المكاء» الصفير، يقال: «مكا يمكو مكاءً» إذا صفّر بفيه. و«التصدية» التصفيق، وهو ضرب اليد على اليد. فقد كان المشركون يطوفون بالبيت عُراة يصفرون ويصفقون.

(٧٣) بحار الأنوار: ج٩٠، ص٢٨٤.

وفي حديث: أن النبي (صلى الله عليه وآله)كان إذا صلىّ قام رجلان من بني عبد الدار عن يمينه فيصفران، ورجلان عن يساره يصفقان بأيديهما فيخلطان عليه صلاته، وقد قتلوا جميعا يوم بدر(٧٤).

{فذوقوا} أيها الكفار {العذاب} في الدنيا بالقتل والأسر وغيرهما، وفي الآخرة في نار حرّها شديد {بـ} سبب {ما كنتم تكفرون} بالله ورسوله.

[٣٧] {إن الذين كفروا ينفقون أموالهم} في قتال الرسول والمؤمنين والتأليب عليهم {ليصدوا عن سبيل الله} أي يمنعوا الناس بذلك عن دين الله وطريقه المستقيم، فكيف يمكن أن يكون الصاد عن سبيل الله ولياً لمسجد الله؟ {فسينفقونها} أي يقع منهم الإنفاق {ثم تكون} الأموال المنفقة للصد عن سبيل الله {عليهم حسرة} موجبة للحزن والتحسّر يخسرونها بلا جدوى {ثم يغلبون} في الدنيا بظفر المسلمين عليهم، وفي الآخرة بأنها تسبب لهم النار {والذين كفروا إلى جهنم يحشرون} أي يُجمعون، فإنهم يُجمعون كلهم هناك جزاءً لما فعلوا من الكفر والعصيان.

وفي بعض التفاسير: إن الآية نزلت فيما أنفقه الكفار يوم بدر لقتال المسلمين، وقد أخبر الله عن العاقبة قبل وقوعها فكانت كما ذكر.

[٣٨] إن ما تقدم من إخلاء الله السبيل للكفار حتى ينفقوا أموالهم في سبيل الصدّ عن طريق الله سبحانه {ليميز الله الخبيث من الطيب} فتكون الأموال المنفقة في سبيل الله معلومة، وتكون الأموال المنفقة في سبيل الباطل معلومة، فقد كانت الأموال قبل الاحتكاك وحدوث الحادثة غير مميز خبيثُها من طيبها، أما في الحادثة فسيتميز بعضها عن بعض {و} لـ {يجعل الخبيث بعضه على بعض} فإنه كان متفرّقاً في أموال عدة، وبذلك تتجمع أجزاؤه {فيركمه} أي يجعله ركاماً مجموعاً {جميعاً} كالنفايات والقاذورات التي تتجمع من البيوت، ويجعل بعضها على بعض في المزبلة {فيجعله في جهنم} كما تجتمع القاذورات في المنافي خارج المدينة. وهذا من باب تشبيه المعقول بالمحسوس ليكون أوقع في النفس {أولئك} الذين أنفقوا هذه الأموال في سبيل الباطل {هم الخاسرون} فقد خسروا الأموال، بل اشتروا بها العار والنار.

[٣٩] {قل} يا رسول الله {للذين كفروا} لا تيأسوا من رحمة الله، فإن الإنسان مهما عصى، إذا تاب؛ تاب الله عليه {إن ينتهوا} عن كفرهم وعصيانهم، بالإسلام والطاعة {يغفر لهم ما قد سلف} من ذنوبهم ومعاصيهم {وإن يعودوا} إلى كفرهم وأعمالهم، و«العودة» باعتبار أن كل يوم كفر جديد ومعصية جديدة {فقد مضت سنة الأولين} أي عادة الله فيهم بالإهلاك، فإنها تنطبق على هؤلاء، وإضافة السنة إلى الأولين، باعتبار كون سنة الله واقعة عليهم، ويكفي في الإضافة أدنى ملابسة ـ كما

(٧٤) بحار الأنوار: ج١٧، ص٨٧.

ذكروا ـ ويحتمل أن يكون المراد: إن ينتهوا عن قتال الرسول (صلى الله عليه وآله) تُركوا وشأنهم ولم يعاقبهم الرسول بما فعلوا ـ فهو مغفرة لهم ـ وإن عادوا إلى القتال فقد مضت سنة الله في الأنبياء أن يكون المحاربون هم المغلوبون المنهزمون، وهذا تهديد إلى كل من تسوّل له نفسه قتال الرسول (صلى الله عليه وآله).

[٤٠] {وقاتلوهم} أي قاتلوا الكفار أيها المسلمون {حتى لا تكون فتنة} أي لا توجد فتنة ـ فإن «كان» تامة ـ فإن الكفار مهما وجدوا القوة والمنعة فتنوا المؤمنين عن دينهم، وأحدثوا الفتن والقلاقل، أما إذا قوتلوا وكُسرت شوكتهم، ذهبت الفتن وتحطمت المؤامرات والمكايد {ويكون الدين كله لله} المراد بـ«الدين» الطريقة، أي حتى تتجمع الطرائق على طريقة واحدة، هي طريقة الله سبحانه. وهذه الآية تدل على جواز المقاتلة إلى أن تتوحد الطرائق في طريقة ارتضاها الله سبحانه للعباد، فلا يكون دين سواه {فإن انتهوا} أي انتهى هؤلاء الكفار عن الكفر والعصيان ومحاربة الرسول والمؤمنين {فإن الله بما يعملون بصير} فإنه يعلم السر وأخفى. وما على المسلمين إلاّ توحيد الصفوف ظاهراً أما الباطن والسرائر فليس عليهم، بل الله يعلم بها ويجازي كل واحد حسب ضميره وسرّه.

[٤١] {وإن تولوا} أي أعرض الكفار عن الإيمان، ولم ينتهوا عن الكفر والعصيان {فاعلموا} أيها المؤمنون {أن الله مولاكم} سيّدكم وناصركم، فلا تخشوهم، بل أقدموا على محاربتهم، فالله {نعم المولى} حيث أنه عالم قادر وفيّ بما يعِد {ونعم النصير} لا يغلبه أحد كما قال سبحانه: (إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ)(٧٥).

نهاية الجزء التاسع

(٧٥) سورة آل عمران: ١٦١.